قاسم مسعد عليوة

خبرات أنثوية

قصص قصيرة



نشر عدد من قصص هذه المجموعة خلال عامى ١٩٩٥حتى ١٩٩٧م فى عدد من الدوريات منها :

- أخبـــار الأدب
- الثـقـافـة الجـديدة
- القـــصـــة
- حـــريـتى
- الأهـــالـــى
- المـــســـاء
- الجـــمـــهـــورية
- الأهرام المـــســـائى
- راقـــــودة
- ســـيداتى وســادتى
- ابداعـات بورسعيـدية

خبرات أنثوية

قصص قصيرة

قاسم مسعد عليوة

لوحة الغــلاف : للفنان جمال عبد الناصر

الطبعة العربية الأولى : يناير ١٩٩٨

رقم الإيداع : ٩٨/٢٥٢٤

الترقيم الدولى: I.S.B.N977-291-069 -1



السلسلة الأدبية

الجمع والصف الإلكترونى

مركز الحضارة العربية

تنفيذ :عبير كمال خضر

٤ ش العلمين عمارات الأوقاف

ميدان الكيت كات

تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

الاهـــــداء :

إلى ثلاث سيدات فضليات

نفثن فىّ من أرواحهن :

جدتى لأمى ..

وأمى ..

وزوجتى

قاسم مسعد عليوة



"ليست نساؤكُم حُلًى وجواهرا
خوفَ الضياع تُصانُ فى الأحقاق"

حافظ ابراهيم

مدرسة البنات ببورسعيد

٢٩ مايو ١٩١٠م

أراجيح الضوء فى الأنجم البازغة

١- انبهار
٢- ياسمينة
٣- كم هن بريئات يا ربى
٤- أختان
٥- انفلات
٦- بنت وسلتان

انبهـــــار

اندفعن مبهورات إلى الشرفـة المُنَّداة بتباشير المطر . تطلعن إلى قوس قزح إذ يحتوى بيوتات المدينة ويصعد فوق البحر ثم يعود فينثنى ويغوص فى الأفق البـعـيـد .. هناك .. حـيث لا يعـرفن أين.. أحـصـين الألوان المتجاورة وتواثبن داخل الشرفة وملن إلى السور.مددن أذرعهن القصيرة ، وفـردن أكفـهن الصغـيرة حـتى أمسكن بطرف القـوس . جاءت إحـداهن بمقـعد فتواثـبن فوقه واعتلين الـسور.. تشبثن بالـقوس وحبين صـاعدات مـحاذرات ، الواحـدة منهن تلو الأخـرى . ولمـا تمكنَّ منه، واستـقـرت أنفاسهن ، رُحن يشقشـقن ويضحكن ويصحن مأخوذات إذ يرين الأسطح المُنَّداة وقد صـغرت وبعدت وأصـبحت كتلك التى يصنعـنها بأيديهن فى حصص الأشغال. وعندما وصلن إلى القمة ، رأين السحب حبلى بالمطر ، وسمـعن أصواتها إذ تئن ، ورأين البحـر فراشاً رصـاصياً مغطى بالمـشمع استعداداً لاستقبال نفثات المطر . وإذ يلمحن أسراب النوارس وهى تطرز الفراغ من حولهن ، تواثبن إلى الفراغ ورفـرفن بأذرعهن . سابقنها ودخلن فى زمـرتهـا وحلقن فى كل اتجـاه . إلا أن النوارس كـانت تنـقض على المشـمع وتنقره لتلـتقط الأسمـاك المتـخفيـة تحتـه قلن البحـر سيـبتل لو أمطرت السحب، وقلن النوارس تلعب لعبة سخـيفة. ورجعن إلى القوس مغاضبات وانزلقن فوقه عائدات إلى الشرفة، وهاهن يقفن منتظرات سقوط المطر الذى سـيغسل البـيوت ويبلل النوارس والأسـماك المخـتبـئة تحت سطح البحر .

ياسمينــــــة

رقيـقة هى الأصابع التى أخـذت الياسمينة منـى . أرَقُّ منها النظرة التى أوسعت ما بين الجفـون وأطلقت الدهشة الطفلية من سواد عينيـها . فرحة متوثبة شقشقت .

- لى أنا ؟

- نعم ..لك أنتِ .

من فورهـا تركتنى وَجَـرتْ . هناك توقفتْ . داخل المـساحـة الجرداء المـحصـورة بالنجـيل الفـاصل بين سـور المـدرسة والأسـفلت. التـمّت صويحباتها ومـثلها شقشقن . تلاطمت حقائبهن فرمينهـا والتففن حولها . انثنت البنت ففهـمتُ أنها تغرسها. رؤوسـهن بدورها انثنت ، والفيونكات فى الضـفائر تأرجـحت .أى شئ يفعلن ؟ .. فى أى أمـر يفكرن ؟ ..فـجأة انتفضن وانتثرن .. بنات هنا وأخـريات هناك . عدن إلى حيث سوت البنت التـراب بالكاد . الماء يقطر مـن أكفـهن وأفواههن . نعم هو المـاء . أكف مقـعرة وأفواه مـنبعجـة . بضع زخّات أسـقطنها فوقـها . زخّـات مضطربة وقطرات شعثاء . ألقينها قبل أن تنسرب أو نفثها قبل أن يشرقن .

مبتلة مرتعشة مادت الياسمينة وسط البركة التى صنعنها . فردن أذرعهن ودُرن حولها . صفقن وحجلن وتغنين بكلمـات حلوة رشيقة . أفهم تماماً مـا يدور أمــامى لكنى ظـللت فى مكانى مــوزعـاً بين الفــرح والأسى ، فـالياسـمـينة فى طريقهـا إلى الذبول لا مـحـالة . ليت المعـجـزة تتحـقق وتستعصى على الذبول ليتها ...

فى كل مكان تَرَاهُنّ . تَـلْفُظهُنّ أبواب البـيوت فـيـتناثرن فى الشـوراع ويمـرحن فـوق الأرصـفـة . تكتظ بهـن الأتوبيـسـات والمـيكروباصـات ويتزاحمن إذ يهبطن منها بأجسادهن النحيلة وحقائبهن الثقيلة . يتوقفن أمام المحلات التى تبتلع قروشهن القليـلة ويتكاثفن باتجاه مدارسهن مثرثرات، مشقشقات، منهن الحـذرات ، ومنهن اللاهيات . قد تخجل إحداهن ، وقد ترفع صوتها مستـعيدة درس المحفوظات أو مقدمـة المسلسل التليفزيونى فلا تلفت نظرك ، فكلهن مـتشابهـات الثياب ، لكنك ملتفت لا مـحالة إلى هاتيك المكحـولات المخـضبـات المتـبخـترات بفـساتيـهن المزركـشة ، المتباهيات بالفيونكات وتسريحات شـعورهن قد يتمهلن فى مشيهن ، وقد يبدين متعـجلات ، لكنهن - كما لاحظتَ - حريصات على عـدم افساد ما تعبت الأمـهات فى رسمة . فـإلى الحفل هن ذاهبات ، سيـغنين أو يعزفن ، قـد يرقصن أو يقـمن بأداء بعض الأدوار التـمثيلية ، ولربمـا قدمن باقـات الزهور لكبار الزوار ، قد ينسين ما حفظنه وتدربن عليه فيلوحن لذويهن أو ينادين عليهـم فـتـحدث بـعض الارتبـاكـات الصـغـيـرة وتعلو أصـوات الموجهين، ونرى الحركات العصبية لأيديهم من وراء الستار ، وإنْ هى إلا لحظات حـتى ينتظـم الأداء ، ويعـدن زهرات يانعـات تفـتـقت بالكاد عن أكمـامهـا ، ستهـتف ، وتقول كم هن بـريئات يا ربى ، كم هن سـاذجات ، حتى تلك التى تسـرى فى خفة وتقرص زمـيلتها وتجرى ، وتفعـل ما تفعل

فى براءة يا ربى ، وتلك التى تشد شعر التى داست على قدمها ، تشده فى براءة يا ربى . إنّ قلبك يكاد يشف من فرط اعجابك بهن ، وبأحلامهن البريئة ، لكنك قد تنظر - مثلى - إلى وجوه المدرسات والأمهات والنسوة الجالسات يتفرجن عليهن فى مزيج من الفرح والحسرة ، وقد تستعرض أعينهن الخبيرة وأجسادهن المترهلة ، فتسأل أين ذهبت براءتهن القديمة .. يا ربى .

هما الآن تستعرضان ما ينبغى استعراضه ، الفيونكات والفساتين والأشياء الحلوة التى جاءتْ بها ماما . أخرجتْ الصغرى جورب الكبرى من كيسه ، وبكمها مسحتْ الكبرى العفار من فوق حذاء الصغرى . الصغرى رتبتْ للكبرى الورود التى ستضعها فى شعرها ومجموعة السلاسل التى ستختار منها واحدة لعنقها ، والكبرى مشطت شعر الصغرى وأعطتها توكة على شكل فراشة . الصغرى تقول :"الفراشة؟! .. لا .. هات عنقود العنب " الكبرى تضحك :" عنقود العنب مكسور يا فالحة " .تتذكر الصغرى أنها هى التى كسرته فتخبئ وجهها بين كفيها خجلاً ، وبطيئاً بطيئاً تُفَرِّجُ بين أصابعها . وتنظر لأختها والفراشة البلاستيكية ، والأم خارج شق الباب ، تفيض عيناها بالفرحة . قلبها يهتز وفى جسمها رعدة .

انفـــــــــلات

انفلت البالون من أصابع مروة .

انفلتت مروة من أصابع أبيها .

انفلتت الصغيرات من أصابع ذويهن .

تحولت الحديقة إلى ساحة للانفلات والمطاردة ..

إلا أن البالون انطلق صوب البعيد .. الأعلى .. فيما

كان هناك سور وجاذبية وأولياء للأمور .

مشـدودة الظهر بلا ردفـين أو ثنيات تمـشى . أضواء الصوديـوم تتدفق فوقنا نهـيرات من قيح وصـديد . لا أحد سوانا وخـفقات الريح والضـباب الذى يلتهم العمائر البعيدة .ينسل ثوبها الطويل حـتى كعبيها .لكأنه قميص للنوم. الكمان طويلان يخفـيان الكفين القابضتـين على سلتين من خوص . الحزام واسع ، عريض وعقدته مهدلة . طفلة . هى طفلة .. شعرها مجدول فى ضفيرة واحدة تتأرجح ثم تتسع لتنتهى بهلال كبير . هذا القرط لا يكون لطفلة . لا يمكن أن يكون لطفلة .. حثثت الخطى ووازيتـها فلم تشعر بى . لم تبـدر منها نأمـة .. مجرد نأمـة . القرط وحـشى النقوش ، والخـد أبيض شمعى . على صفحته زغب خفيف ، نافر ومتوهج بالصوديوم .

قلتُ : " هذه البنت جديـرة بأن أملى عينّى منها " . تقـدمتُ عدداً كافـياً من الخطوات ثم استـدرت . صـدرُناهد ووجـه شـاحبُ مـدور . شـدتنى العـينان ، واسـعتـان . رمـاديتـان .. يا إلهى .. عـيناها رمـاديتـان .. صفـرة الصوديوم مطـبوعة فـوقهمـا ، ومع هذا تأكد لى أنهـما رمـاديتان ". هى لا ترانى " . هكذا خمنت . لم تلتفت. لم ترمش . استمـرت فى مشيها . نفس الخطوة . نفس الملامح . ما من اختلاجة تدل على أنها رأتنى .

تعمدتُ أن أقف أمامهـا . فى مواجهتها بالتمام . فكرتُ فـيما عساى أن أقولـه لها إن كلمـتنى . لكنها لم تكـلمنى . ولم تغيـر من اتجاه خطواتـها.

هجستُ :" هى نائمة أو عمياء " خطوتان وتصطدم بى . حركتُ كفّى أمام عينيـها فلم يطرف لها جـفن .. كيف تمشى فى هذا الليل بدون عـصاة أو رفيق؟... ملتُ عنها فـاستمرت فى مشـيها . اقتربنا من الضبـاب أو اقترب هو منا . ثقيلٌ وواطئ . يلتهـم البيـوت وأعمـدة الصوديوم والشـجيـرات العارية . قـفزتُ عدة قفـزات وأعطيت الضباب ظهرى . فـتحتُ ذراعى لا تلقفها . ماذا عساه أن يحدث إن ابتعلها ؟ .. خطواتها ثابتة مستقيمة لا تزال ." لو أبطأتْ فى مشـيها .. " ، " لو أمكننى أن أدفع التقاءهمـا ..". هتفتُ: "قـفى .. ارجـعى .. الضبـاب " . برقت عـيناها . نعم برقـتـا فـارتجـفتُ .رماديتان . رماديتان وعميقتان . شئ ما أرخى ذراعى وأزاحنى جانباً . هى ترانى . بالتـأكـيـد ترانى. رأيت ظلـى على البـؤبؤين. بالرغم من العـتـمـة والضباب وصفرة الصوديوم وجدتُ نفسى بداخلهما فارتجفت من فرعى إلى إخمص قدمى.اختلجتُ.هذا القزم المـحاصر بالصوديوم والرمادى هو أنا.

طال الضبـاب ظهرى فـتراجـعتُ فيمـا تقدمت هى بجلـبابها وكـميـها وسلتى الخوص ومـشيتـها الثابتة ومـضت . صافح الضبـاب الذى فاضت عليه نهـيرات القـيح والصديد ، وجـهها وصـدرها . التف حول شـعرها . أطراف الضفـيرة الوحيدة مـا تزال تهتز ، والظهر الذى بلا ثنيـات أو ردفين يدخل فى الضباب ، الكُمّان الطويلان والحـزام المهدل وسلتا الخوص . هى طفلة .. بالقطع هى طفلة . يحوطها الضباب فيبزغ السؤال : " ترى ماذا عساها تحمل فى سليتها ؟ " .

أقمار مراوغة تختبئ تحت قمصان البنات

١- حنو
٢- حمّام
٣- صورة
٤- البراح
٥- نقاء
٦- الزائرة



حنــــــو

يمامتان نزقتان حطتا على صـدر البنتْ.فَرحتْ البنتُ وداعبتهما بحنو. وقفتْ أمـام المرآة ، وراحتْ تنظر إليـهما وهمـا مستكنتين بين راحتيـها . دفء لذيذ سـرى فى ذراعيـها ووًّرد خـديها . وإذ تـناغيـهمـا وتهدهدهمـا اكتشفتْ أن عينيها تبرقان بشئ جديد لم تعهده من قبل. أحسَّتْ بجلبة أمها فى الخارج ، فأسرعتْ باخفائهمـا داخل قميصها واندست تحت الأغطية . دخلت الأم ورأتْ ثنيـات الجـسم وقد تمـرد على ثقل الأغطيـة. دارتْ هنا وهناك تلملم أشـيـاء البنت وترتبـهـا. وقـفتْ على رأسهـا تتـأمل الخـدين المـوردين والعـينيـين الناعـسـتين والبـنتُ فى انتظار لاهث . سـوَّتْ الأم الأغطية وأزاحت الضفيـرة إلى ما وراء العنق ثم خرجتْ . من فورها وثبتْ البنت إلى الباب ، أحكمتْ إغلاقه وفتحت قميصها ، ثم أخرجتْ اليمامتين وراحتْ تداعبهما بحنو .

حمّـــــام

تخجل حين تخلع مـلابسها فى الحمّام . تخـشى النظر إلى جسدها فى المـرآة . قد تنظر إلى وجـهها وشعـرها المبلل ، لكن ليس قـبل أن يُغطى البخر صـفحتهـا . حين تقترب أصـابعها من مواطئ الأنوثة فـيها تسحـبها بسرعـة . تقتحم الكهـرباء رغاوى الصابون وتنفـذ إلى دمائها وتصـعد إلى الدماغ والعينين. ما تزال لسعات الحزام الذى مـزقته أمها على لحمها وهى طفلة توجع ذاكرتها ... " سأكويـك بالنار " .. " حَرَّمت ُيا ماما ، حَرَّمتُ " .. " سأدهن حلقك بالشطة " .. " حَـرَّمتُ والنبى ، حَرَّمتُ " .. " هذه المرة أوقفت ميـاه الدُش ومسحتْ غبشـة المرآة ونظرت . مرتعشة خـائفة مدتْ كفيها وقربتْ أصابعها ولمستْ . اشتعل جسدها وغامتْ عيناها . استندتْ بظهـرها إلى القيـشانى مـتلاحـقة الأنفـاس دائخة . لحظات ثم تمـالكتْ . عقصتْ شعرها وأفسحتْ بين ساقيها ووقفتْ أمام المرآة طويلاً ، وأمها فى الخارج تفكر فى الحجة التى ستقتحم بها باب الحمّام .

صـــــــورة

ذاقتْ طعم القبلة الأولى ، فى غفلة من الأهل ومن الناس ومن القمر المتلصص . استدفأتْ بالحضن الأول ، واستمتعتْ بالهمسات الناعمة ، وإذ ينعمان بوقتهما المختلس ، قالت : " أنا لك .. افعل بى ما تشاء " . وهاهى - من لحظتها - منزوية فى ركنها المعتم تبكى نفسها وتنتظر. ترفع بصرها إلى أبيها وأخوتها إذ يطلون عليها من الصورة المعلقة فى مواجهتها، وتحاول أن تقرأ فى ملامحهم ما عساهم أن يفعلوه لو علموا.

تنفستْ بعمق وهى تقف وسط كل هذا البراح .صمت الطبيعة يحتويها ، وأسراب اليمام تظللها ، تزركش قبة السماء ، وتميد صاعدة هابطة فى دوائر لها كرانيش ، والشمس المستحية تتخفى وراء الأشجار البعيدة . لعلها خجلى من النظر إليها . وهى وحدها وسط كل هذه الخضرة ، وسط كل هذه الزهور ، وحدها ولا أحد سواها فى هذا الخلاء . أحسن أبواها لمَّا جاءا بها لزيارة عمتها. " كم أنت طيبة ورائعة يا عمتى " ." تعيشين وسط هذه البهجة وتنعمين بكل هذا الجمال ". " إن لم تكن هذه هى الجنة فماذا عساها أن تكون ؟ "

أحسستْ بجسمها خفيفاً فَجَرَتْ ولَفَّتْ ودارتْ . أطاحتْ بحذائها وفكتْ شعرها . فتحتْ صدرها وأرجحتْ .فستانها آه لو طارتْ مثلما تطير هذه اليمامات . ارتمتْ على الأرض فأحاطتْ بها الزروع . غنَّتْ فجاوبها الكروان . قفزتْ فتحلقتها الفراشات، ولما وقفتْ تواثبت حولها الضفادع . خضراء . مرحة . فردتْ كفاً فحطَّتْ عليها فرس النبى . تهافتت روحها : " آه يا ربى يا مبدع كل هذه الخلائق ". وضعتْ الفرسة على ورقة خضراء وانثنتْ فوق زهرة. نحلة مشغولة بامتصاص الرحيق أمسكت فرع صفصافة واستهواها التأرجح فوق الترعة فتأرجحت ، رؤوس الأسماك عَلَتْ . شقت فستانها المقلوب فى الماء ، وَرَنَت .صورتها تسبح أسفل منها . معكوسة لكن فَتَّانة . مستْ الماء بإبهامها فطرطش وامتد خيطان أبيضان

طويلان على جانبيهما . تقافزت سميكات صغيرة فالتمعت بالفضى والأحمر ثم غطستْ .

شدتها الأوزات التى مالتْ عنها عساليج السيسبان فوثبتْ إليها صاحتْ وفتحتْ أجنحتها وطار زغبٌ وارتمين على صفحة الماء . رأتْ رأس عنزة فاستدارتْ نحوها . اكتشفت جَدْياً يلاقحها . جَدْى له لحية مرسلة وقرنان ملتفان . رأياها فجفلا وجريا وراء أشجار التوت والجميز.

تفجرت أشياء بداخلها فطفقتْ تتشمم الزهر وتجرى تفتح ذراعيها وتنكش شعرها وتُصدر أصواتاً غير مفهومة . هو هو.. هى هى ..هاها . خاصرتْ نفسها ورقصتْ ، تشقلبتْ . ضربتْ صدرها وردفيها. هصرت ثدييها بجذوع الأشجار وتمرغت فوق أكوام القش ، وحينما حط أبو قردان أمامها بجسمه الأبيض الرشيق ورقبته النحيلة ، توقفت . تأملت عينيه ومنقاره ثم جثتْ على ركبتها ، رفعت وجهها باتجاه السماء واخترقت بعينيها زركشات اليمام . بمنتصف القبة التى اصطبغت بالأحمر تعلقتا. وبطيئاً بطيئاً رفعتْ كفيها وتضرعتْ : " لا تعيدنى يا ربى إلى بيتى فى تلك المدينة . ابقنى هنا . امتنى هنا . ابعثنى من هنا أرجوك .. أرجوك يا ربى " .

ولأن الشمس كانت قد غادرتْ الخمائل البعيدة ، وانحدرت وراء الخضرة التى اغمقت ، فقد لمّت شعرها واغلقتْ صدرها، سَوَّتْ فستانها والتقطتْ حذاءها ، وعادتْ خفيفة متوثبة إلى دار عمتها .

فوجئت بالعيلة واللمة . أبوها وأمها وعمتها وكل الأقارب على عتبة الباب يجلسون . استرابت. " كأنما هم فى انتظارى ". أبوها منكس الرأس وهم متوترون . نطقت أمها : " اخص عليك بنت .. من بكرة حا نسافر ".

لم تفهم . نظرتْ إليهم تستنطقهم "، فقالت عمتها :" بصراحة كدة ، مفيش حدانـا بنت تعمل اللى عـملتيـه ونفرَّج علـينا أهل الكفر كُلِّتْـهم ". صكّتْ صدرها وانكمشت خـجلى ، وأمام عيونهم المـفتوحة أغلقتْ عـينيها على سؤال مُحير"أين تراهم أهل الكَفْر كانوا يختبئون؟ ".

لو تجسد الطهـر فى صورة تشبهنى لكنت أنت . هـل تكونين إلا ملاكاً خـصنى الله بك ليـريني من آيات فـضله مـا يُعـين على نفض أدران البـيت والمرقص والشـارع ؟ .. يا ابنة النور اعذرينى إذا مـا قَصَّـرْتُ فى حقك ، واعفينى من لـوم عينيك إن عجز جسـمى عن التطواف الأبدى حولك ، أو عاودتْ قدماى الجنوح إلى مواطن الزلل . اسمحى لى بقليل من الانفلات، قليل من الوسخ فـما أنا إلا بنت مسـكينة من لحم ودم ومعـدة وطين .. أما أنت .. آه .. أنت .. أُجِلُّك .. كم أُجِلُّك . ربـما صـورك اللهُ مـثل هيئـتى ، لكن ما من حـسن إلا هو فيك . ما من خلَّة طيبـة إلا ألمحها فى مـحياك .. فى كل ما يبـين من قامتك يستكين النور .. نور بسيط .. هادئ . نور غـير قابل للخدش من ظل أو من عتمـة . فى سكناتك يتضوع المسك . أترينني أسكن فؤادك يـوماً . كم أنا ظمأى لريك ، فـطهرينى وخذينى إلـى نقائك . خذينى من ظلمة البيت والمرقص والشـارع.كم هما جميلتان هاتان اليدين البريئتين. مديهـما إلىّ واحتـضنينى . لفى علىّ جناحيـك وأريحينى على صدرك . هل هناك أطيب من أن تريح مـعذبة مثلى رأسهـا على صدر ملاك رائع النقاء مثلك ، لكن مهلاً .. إلى أين تذهبين بأصابعك . آه .. اتركينى .. يا إلهى ..كل هذا الشبق فى عينـيك؟..من أنت ؟..من تكونين؟.. ابتعدى عنى.. اتركينى.. بى ما بى ، لكنى أبداً لا أفعل ما ترغبى ..

عندما كانتْ تأتى لزيارتهم كان مجرد طفل . طفل ممتلئ يتباهى أبواه بأنه الوحيد بين أخوته المـرتب المهندم الذى يسمع الكلام. أما هى فكانت شيئاً كبيراً ورشيقاً . ترتدى التايير وتمسك حقيبة جميلة تخرج منها أشياء حلوة كثيـرة . كراملة وشيكولاته وأشـياء تقرقش وتمتط . قـد تخرج إيضاً مناديل ملونة تمسح بها ما يكون قد علق أو التصق بشفتيه أو أنفه أو ذقنه .

كلام كثير يـقال فى الصالون عندما تجئ ، فيجلس إليهم واضـعاً كفيه على ركبـتيـه أو عاقداً ذراعـيه على صـدره ولا يفهم شيـئاً . لكن مـا تقوله يخرج من فمـها منمنماً حلواً ، وأخوته الأغـبياء يحرمون أنـفسهم من هذه الحلاوة . يختبئـون منها ويلعبون بعرائسهم . لو جاءوا لفهـموا وأفهموه ، كانت تسـتأذن من أبويه وتجلسة إلـى جوارها . تمسح شـعره وتُربت على ظهره وتعطيه بأصابعـها الطويلة ما تجود به الحقيبـة فيشكرها ويحنى رأسه خفراً وخجلاً .

وقد يحـدث أن يدفعـه أبواه - ما دام هو الوحـيد الذى يجلس إليـها - لاستقـبالها ريثما يفرغـان لها ، أو يتركانه لها لينـهضا إلى بائع اللبن الذى يتربصان به لأنه بدأ ينقص المكيال ، أو تكون سعدية الخدامة قد فتحت لها وأبوه وأمه غيـر موجودين فى البيت . فى مثل هـذه الحالات كانت تناديه " تعال جنبى .. اقترب " وتشيـر إليه بأصابعها الطويلة ، وبالحقيبـة المفتوحة تغريه ، فيأتيها طائعاً مستسلمـاً لتضعه فوق حجرها . من فوره يشعر أنه قد

وقع فى قبضتها ، فيهتز ويحاول التملص بينما هى تمط فى ابتسامتها وتنهمر عليه تقبيلاً، وتمد يدها إلى بنطلونه. ما تفعله غامض لكنه لا يستطيع التأوه ، ففمها لا يغادر فمه ، ولا يمكنه ضربها بكوعه ، فذراعها تمنع ذراعيه من الحركة . لا يعرف كيف يفر ، ولا يجرؤ على تصرف طائش يغضب أباه وأمه . ثم هى جميلة ، تقول كلاماً منمنماً حلواً، وحقيبتها ملأى بالمفاجآت.

لكنها ، كما يحدث دائماً ، ما أن تسمع صوتاً قادماً حتى ترفع رأسها وتفك ذراعها وتجلسه على الكنبة المجاورة، وبهدوء تخرج من الحقيبة مفاجآتها وتبدأ فى تحريك شفتيها بالكلام المنمنم الحلو . ولم يحدث أن عرف أحد سر التورد فى خديه ، ولا سبب الاضطراب فى ملابسها .



براعم الاقحوان إذ تتأود فوق المدرج

١ - تنهيـــدة

٢- الكونــش

٣- عسل وكستناء

٤- شخبطـات

٥- ستـــرة

أحبتْ الأستـاذ . ما يقوله هو السحر . أدمنتْ الاسـتماع إلى حكاياته . عشقتْ البلاد التى زارها ، وهامتْ بطابع الـحُسن فى ذقنه . لطالما غسلتْ بعينيها كفه وأزالتْ الطباشير اللعـين من فوق أصابعه الجميلة .أصابعه التى تشـرح وتفسـر ، تنتفض وتسكن ، وتقـول مـا لا يقال . لكأنهـا تتكلم هذه الأصابع ، لكأنهـا تنطق . كم هو أنيق ومهـذب . بعد أن ينتـهى تجرى إلى الممسـحة فتمسكهـا ، إلى إصبع الطباشيـر فتضمه ، إلى السـبورة فتلمس خطوط أصـابعـه ، مَـرّتْ هنا .. آه وهنا .. لكنـه لا يعلم. تلتـقط الأزهار الصغـيرة وتشـبكها فى شعـرها تارة ، وفى قمـيصهـا أخرى. تُلقى بأشـعار المحبـين على مسمع منه . تسأله عن الجـغرافيا فيـجيب . عن تاريخ الأمم فيفيض . تسـأله عن كل شئ .. عن المجّـرات والشموس ، والقمر .. القمر المسهد مثلها . تود أن تـسأله عن ليله . عن نهاره . من يطبخ له . من يسهر معـه . ما سر هذه الكرمـشات فى قمـيصـه . ولماذا جرح ذقنه . لمـاذا مال خطه على السبـورة . لكنها تخجل ولا تفعل أكـثر من أن تُغلق عينيهـا عليه وتتنهد.

ساقاها طويلتان ملفوفتان . ترتدى البنطلون . لا يذكر أحد أنه رآها ترتدى فستانا أو جونلة . إن مشتْ فهى تدب على الأرض دباً ، وإذا ما صعدتْ المُدَّرج أفسح لها زملاؤها لعلمهم أنها ستقطع الدرجات خمساً خمساً . تلعب الرياضات العنيفة .. التايكوندو والكاراتيه وترفع بعض الأثقال . شوهدت مراراً فى الجمنزيوم وهى تلكم أكياس الرمل وبالونات التدريب وتعتلى حلبة الملاكمة . يدعوها زملاؤها بالكوتش ، ويلقبها الأساتذة بالخطيرة . إذا ما نشبت مشاحنة يكفى أن تنهض ... فقط تنهض .. فيبلع كل لسانه . يوم أن رأوها بالبلوزة والجيب اندهشوا . ولما لم تنهض لفض مشاجرة نشبتْ هجسوا وتهامسوا بأن أمراً جللاً قد حدث . وحينما لمحوا آثاراً خفيفة للأحمر الذى حددتْ به شفتيها أيقنوا أن فى الأمر رجلاً. ومن ساعتها لاحظوا أنها لم تعد تذهب إلى الجمنزيوم .

عيناه عسليتان ، وشعرها كستنائى . وَدَّتْ لو قالتْ له : " أحب العسل " وتمنى أن يسألها :" لـماذا الكستناء بعيد المنال " . لكـن الرائحين والغادين شغلوا الفراغ فيما بينهمـا . هى جالسة فوق قاعدة الشئ الذى لا شكل له ، وهو مستند إلى الحائط بظهره . لاحتْ قامة الدكتور فى نهاية الممر فاندفعا مع المندفـعين إلى بـاب المُدَرَّج . بينهـما الكـشاكـيل وملفات الأبحـاث والحقائب والأجساد المشرئبة . قبيل الباب تماسا . ضغطهما الزحام فتماسا . لا . التصقا . فالكتف بالكتف التحم . " عيناه عسليتان يا ربى " . " شعرها كستنائى يا إلهى "متجاورين صعدا المُدَرَّج، ومتلازمين انتحيا مكاناً وجلسا . زاحمـهما الآخـرون ،لكنهما حـافظا على صفائهـما وصمـتهمـا والفراغ الضـئيل فـيمـا بيـنهـمـا . على (البِنْش) تراصتْ الـكشـاكـيل وملفـات الأبحاث.فوق كشكولها وضعت كفا .طرية ، ناعمة ، لها أظافر مطلية بلون هادئ . مَدَّ كـفه وأرقدها على (البِنْش) بيـن كشكوله وكشكولهـا . فردها على آخـرها وأوسع ما بيـن الأصابع قـدر استطاعـتـه . زحف بها قليـلاً ، وأصعـد خنصره كعب كـشكولها . الدكـتور يقول كـلاما لا يسمـعانه .هو مشـغول بخنصره وهى مـشغولة بالانتظار . مَسَّ الخنصرَ إبهامهـا فأعطت وجهـها المـشتـعل ، كل وجهـها المـشتـعل للدكتـور . من الإبهام تـسرى رعـشات الكهـرباء ويمـتد خـيط اللهب . دون أن تنظـر إليه قـالتْ " أحبُ العـسل" ودون أن ينظر إلـيهـا قـال :" أحبُ الـكسـتناء " ،وتلاشى الفـراغ الضئيل فيما بينهما ، بينما أخذ الدكتور يتكلم ويتكلم .

تضايـقها اندفـاعات الزمـلاء فتـقف محـتضنه كـشكول المحـاضرات وترقبهم وهم يتـزاحمون بحقائبهم ونظاراتهم وأذرعهـم ويتصارعون على الصـفوف الأولى . تدخل بعـدما يخف الـزحام . تشق طريقـها بتـؤدة إلى أعلى المُـدَّرج ، وتجلس فى آخر صف . يدخل الأسـتاذ فـيسقط الـصمت على الجمـيع ، وما يلبث أن يذوب ، ويتـبدد . تُملى عـينيهـا من ظهورهم وأقـفيـتـهم وقـشور الرؤوس المـتناثرة فـوق أكـتافـهم. ترسم مـا تراه فى الكشكول خطوطاً عـرجاء ملفوفـة ومتشـابكه. ترى الالتصـاق الخفى بين الأكواع ومنـابت الأثداء وتلصص الأكف على الظهور والأرداف، فـتكتب أسمـاء الفاعلين والفاعـلات وتحيطها بتعـرجات وشخـبطات ما تلبث أن تتحول إلى حيوانات شوهاء فيكون لكل حيوان إسما .

تُدركُ أنهـا تخـتلف عنهم ، فـهم يأتون بمـا لا تقـدر عليـه . تتـمنى لو تستطيع الذوبان فى عوالمهم ، تصخب وتهرج وتتلقى لمسة هنا أو هناك ، لكنها أبداً لاتستطيع . ينتهى الأستاذ ويخرج فيتدافعون بحقائبهم ونظاراتهم وأذرعـهم، بينمـا تنتظر حتى يخف الزحام ، فـتـحصى الشـخـبطات التى رسمتها وتغلق الكشكول وتهبط المُدَّرج بتؤدة. وتتجه إلى الخارج .

يستغربن وجودها بينهن بُحليها الغالية وعطورها الباريسية وثنيات الاشمئزاز التى لا تغادر أنفها أوزاويتى شفتيها . هى أيضاً تستغرب وجودها بينهن . هاتيك الفتيات المتبجحات اللائى يسوين رؤوسهن برأسها . إذا ما حادثنها ترد ببرود من لا يرغب فى المزيد ، أو تُصعّر لهن خدها ، أو تشيح بوجهها عن ثرثراتهن وروائح أسنانهن العطنة . وهن اختزلن لغة الحديث معها ، وحولنها إلى اشارات بكماء وهزات رؤوس ساخرة . مجرد إشارات أو هزات .

يذكرن يوم علقت جوبتها فى مسمار بالمُدرَّج فشقها نصفين وعرى مؤخرتها لتقف كدجاجة منتوفة . تنهشها عيون الجوعى من الطلاب. بأريحيتهن أسرعن فدثرنها بأجسادهن وهتفن بالطلاب أن يبتعدوا ، وظللن معها حتى سترنها . هى أيضاً تذكر ما كان منهن عندما جاءتهن فى اليوم التالى ببعض فساتينها ثمناً لهذا الصنيع . وتذكر نظرات أعينهن وهن يلقين بها فى وجهها الواحدة منهن تلو الأخرى .

لا شئ يربطها الآن بهن سوى إشارات التجافى. " جئتُ إلى الكلية الخطأ ، فى الوقت الخطأ " . هذا ما قررته لنفسها. وهاهن هاتيك المتوحشات يُحطن بها . ينبشنها بنظراتهن ، يدعين التعالى ، ويفترسنها فى خلواتهن . تعرف هذا الصنف من الناس جيداً . لديها عينات مشابهة .

الشغالون والطباخون والجناينية وموظفو أبيها .

اليوم هو آخر يوم يمكن أن يلتقين بها أو تلتقى بهن . يرتدين الأرواب والقبعات وهى بينهن ، بدر فى ليلة التمام . تشعر بنفسها شديدة الفتنة ، وترى الانبهار بجمالها فى عيون الأساتذة وأولياء الأمور. لحظات وينصرف الكل ، ولن تعود إلى هذه الكلية أبداً . ستصافح الدكاترة ويسلمها العميد شهادة التخرج. بعدها ستلقى بالشهادة أمام أبيها وتطلب منه أن يفى بوعده لتكمل تعليمها فى السربون أو هارفارد أو بنسلفانيا . هاهى الأيادى تمتد عبر المنصة لمصافحتها. وهاهى ذى الشهادة ملفوفة ومحاطة بشريط الستان ، وأصابع العميد تبدو ثابتة عليها . تقف فى المنتصف تماماً. خطوات وتنتهى . العيون ،كل العيون ، تتطلع نحوها ، تَمُدُّ يدها .. يا اااه .. الروب والفستان يمتطان ويتمزقان لتقف كدجاجة منتوفة وسط الجميع . بسرعة سحبن الصّنارة وافتعلن مظاهر الجد ثم الفزع ، وقمن متباطئات متشفيات لسترها بعدما نهشتها عيون الطلاب وأولياء الأمور والأساتذة والعميد والسعاة الذين تركوا الأبواب وتقدموا نحوها .

فراغات باتساع الشوارع والأرصفة

١- عبــــور

٢- تجــــاوز

٣- فى الممــــر

٤- عبر بنايتين

٥- للشقراء أغنى

٦- حســــاب

٧- عريــــس

٨- تســــاؤل

٩- معــــاً

١٠- بعض من لدونه

وكان أن جلستُ فـجلستْ قبالتى تمـاما . لا يفصلنا إلا نهـر الشارع . جاءنى النادل بمـا طلبتُ ، وجاءها النادل بمـا طلبتْ . أشرتُ لها فـبادلتنى الإشارة بمثلهـا. طلبتُ بإصبع أن تترك جلستها وتأتيـنى ، وأشارتْ أن أعبر نهر الشارع وآتيها. فكرتُ فى أنها تريد - ومنذ البداية - أن تكسر شوكتى ، فألححتُ أن تنهض وتعبر أمتـار الشارع القليلة ، ولكنها أصَرَّتْ على البقاء فى مكانهـا وطلبتْ من النادل مـشروبـاً آخر . طلبتُ مـثلهـا وأشرتُ بأنهـا ستنبهر بما أعددته لها إن نهضتْ، فأكدت بأنها سترحب بى إن قمت إليها ، ولم نلتفت إلى تكاثف السيارات المارقة بيننا إلا حينما اضطررنا لأن نميل بوجهينا ونشرئب بعنـقينا ونرفع أذرعنا حـتى يفهم كل منا اشـارة الآخر . عندئذ نهضنا نحن الاثنين، وفى وقت واحد حاولنا عبور نهر الشارع ، لكنا لم نستطع .

تجـــــاوز

ابتسم لها بشئ من الارتباك فأطرقت خجلاً، وتجاوز كل منهما الآخر. لما ابتعـدا قليلاً التفتا مـعاً . التقتْ عيونهـما ثم تابعاً المسـير . فرح عظيم داهم قلبها . بغير ما إرادة توقفتْ . استدارتْ فرأته هناك .. قرب المنعطف . هو أيضا توقف ، ومـثلها اسـتدار . حمـامات رفرفت فى الفـراغ الفاصل بينهمـا . ودتْ لو هرولتْ إليه ، لكنها تراجـعت . شَدَّتْ قوامهـا وعاودتْ المسير ، إلا أن خطوها اختلف وأنفاسها تلاحقتْ .

فى أول زقاق مالتْ . كـيف جَرُؤَت ؟ .. كيف طاوعتهـا قدماها ؟ ... من الزقاق انـعطفتْ إلى أول حارة، ومنهـا إلى الممـشى المفضى لـلشارع الذى التقيا فـيه . شَدّتْ قوامها وسارت باتجاهه . هو أيضـا سار باتجاهها. تواجهها. ابتسم لها بشئ من الاندهاش فـأطرقتْ خجلاً وتجاوز كل منهما الآخر .

الفتاة بالتـايير الوردى والقرط الوحشى بزغتْ من نهـاية الممر . تأودتْ ومرقت فيما يشبـه الحلم .لم ينالنى منها سوى عطرها الغامض. خليط من لافندر وياسمين . ربمـا . ربما هو عطر جسدها المتوقـد . ربما . قبس منه هو الذى أترعنى. أترعنى والجالـسين والعابرين . هاهى ذى الدهشة تعـقد لسانى وألسنتهم . جميعنا تسمر مأخـوذاً باتجاهها إلا امرأة عجوز. متحررة من الأسـر أخـذت تحملـق فينا وتضـحك . تشـيـر إلينا وتضـحك . تدور حوالينا وتضـحك ، فيما ظل العطر يـتضوع فى الممـر ويلفنا ، وما من أثر للفتاة بالتايير الوردى . ما من أثر .

يقضى معظم الليل فى التطلع إليهـا . تتَصَّاعَدُ تنهيـداته وتهمس من أسفل شاربه . تنزلق من النافذة وتعبر الفراغ الفاصل بين البنايتين . قد تهتز لضوضاء العربات الـمارقة فى الأسفل حتى ليُظن أنها ستهوى من حالق ، لكنها فى كل مرة تطفو وتتموج وتنسرب فى الفـضاء المتبقى وتصل إليها. تلتصق بمنبتى الثديين المكشوفين حارّه لاسعـة ، فلا تخفيهما بكفيها ، ولا تتحرك من مكانها ، وتظل فى وقفتها تنظر فى كل اتجاه إلا اتجاهه . يناديها أبوها فتـدخل . تُحس بنفثـاته تُلهب ظهرها فلا تلتـفت وتمضى إلى أبيـها ضاحكة .

غنيتُ للشقراء المتكئة على سور الشرفة . رفعتُ رأسى باتجاهها وغنيتُ . زفراتُ حَرَّى ضمختُ بها غنائى . وضعتُ يدى على قلبى ، وقلّدتُ المطرب الشهير ، لكنها لم تسمعنى . هذا ما فهمته من عينيها الساهمتين باتجاه البعيد .أذبتُ نفسى شعاعاً وعرضتها تحت عينيها بالتمام فنظرتْ إلىّ. ليس أمامها إلا أن تنظر إلىّ . شئ ما تحرك فى عينيها . ابتهجتُ فضممتُ كفىّ ومددتُ ذراعى مثلما يفعل المدلهون حبا . أعطتنى وجهها وحّركت زاويتى شفتيها . هى تبتسم أو تشرع فى الابتسام أمعنتُ النظر لاتأكد من أنه ليس وهما . بالفعل هى تبتسم. خفيفاً اندفعتُ إلى عامود النور ، خاصرته بذراع وفردتُ الأخرى مثلما فعل النجم السينمائى . لو شاءتْ أن أفعل ما هو أكثر لفعلت . لو أرادتْ أن أطير إليها لطرت، فى عينيها دعوة لأن أعود إلى حيث كنتُ. أسفل منها بالتمام . ربما قالتْ لى شيئاً . ربما أنزلت لى حبلاً . فى وثبة كنتُ حيث فهمتُ . حركتْ يدها . لعلها ستكلمنى بالإشارة . ربما لوحتْ لى . ربما كلمتنى بأصابعها . لعل أحداً بالداخل تخشى أن يكشفها . لا يهم ، أنا خبير بلغة الإشارة ركزتُ اهتمامى فى الكف التى رفعتها . علّقتُ عينى بأصابعها إذ تفردها ، لكنها رمتْ قشوراً من اللب فوق رأسى ثم أشاحتْ دون أن تضحك ... حتى !!

حســـــاب

هاهن يمشين متبخترات ، متخلعات ، يملأن الشوارع والحارات . نضج بحركتهن الردهات والممرات ، يثرثرن فى المكاتب ووسط الآلات. يتدافعن بحقائبهن ويطلعن بأجسادهن الصغيرة والممتلئة ، بأثدائهن المشدودة والمترجرجة. يؤرجحن جماجمهن ، ويسوين شعورهن وخمرهن. يقفن ويساومن ويحلفن ثم يمضين غاضبات أو راضيات وربما مستهترات. قد تنفرج شفاههن عن ابتسامة أو تُزم على تكشيرة ، لكنهن دائماً شاحبات على الرغم من الأصابع والحلى الأصلية والمزيفة ، فهناك فى البيت رجل أو ولد، يجب أن تحسب له كل واحدة منهن ألف حساب .

عـــريـــــــس

وَدَّتْ لو حملـها النسيم وحلـق بهما فى الفـضاء . لو أجلسـهـمـا فوق نجمـتين وأرجحـهـما داخـل الهلال المعلق فـوق المدينة . فكم هى مليـئة بالخير والحب هذه الحـياة. مـا من شئ إلا يلمع ... يبـرق .. يضئ . وفى الداخل ذلك الوجيب اللذيذ ، وتلك الفرحة التى تشـعر بها قوية ..طاغية . قـال لها: أحـبك . وقال لهـا :سـأتيكم وأهلى ونطلب يدك . تركتْ كـفهـا تستـكين فى كفه واسـتراحت له . بعـدها ، فردا أذرعـهمـا وطفقا يـجريان ويرقصـان. يهتفـان للحياة وللحب . وحـينما انبثق أمـامهمـا ذلك الشـرطى المستريب ، فوجئتْ به يتركها ويجـرى مختفياً فى أول انعطافة ، بين الأبنية السوداء المـتكاثفة هناك ..حـيث لا شئ غير الـظلمة ، بينما سَـمَّرتهـا عينا الشرطى فى أسفلتْ الطريق.

تســــــاؤل

البنت فى الشارع الآن . لا يوجد رصيف ، لكنهـا على حجر أمام باب العشـة تجلس ، عيناها مثبتتان على الداخلين والـخارجين . ذقنها المـدببة مستـريحة على كفيـها وكوعاها مـغروسان فى فخديهـا . تقول هذا الرجل جاء من قـبل . هذا الرجل لم يأت من قبـل . هذا الخارج أعطانى جنيـها ، وهذا الولد شتمنى . ومن الداخل تأتيها الأصوات التى لا تفهمها، فتتساءل عما يحـدث ولا تراه ، ولماذا تنبه عليهـا أمها بعدم الدخول عـليها فى هذا الوقت بالذات .

أربع فـتيـات ينمن فـوق الرصيف . فـوقهن خـيش وتحـتهن خـيش . إحداهن فركتْ عينيـها . قرطتها مفكوكة ولمعة النوم فـوق جبينها ، الكوز فيه بعض المـاء والورقة التى أكلن ما كان فيـها مزنوقة بين إبهامـها وكعب إحداهن .

ظلَّ الرجل بالبالطو واللفافة الكبيرة ينفرش فـوقهن . حملقت فيه الفتاة وجلستْ فأفـقن . ثلاثتهن أفـقن . مثلهـا حملقن فى الرجل . أشـار باتجاه واحدة :

- أنت .

هَمَّتْ بالنهوض فأمسكن بها . فى نَفسٍ واحد نطقن :

- معاً .

وَزَّع بصره بينهن وبين اللفافـة . فى اللفافة زجاجات وأرغـفة وأجبان. هز رأسه أن لا بأس فنهضن . كَوَّمْنَ الخيش ودخلن تحت إبطية . لكل إبط اثنتان ، وإذ يمشى بهن حاولن ، كل واحدة على حدة ، أن تُمسك باللفافة . تُمسكها أو حتى تمسها . لكنه فى كل مرة يقصيها عنهن ويمشى فلا يملكن إلا أن يمسحن أنوفهن ويستحلبن لعابهن ويمشين معه .

وفى منطقة الضوء الباهر،هناك.. تحت الفانوس ..فرد العسكرى الورقة أم خـمـسة التـى منحـها إياه ذو البـالطو ونـدتْ عنه"ياه" طويلة ممطوطة، وارتكن إلى العامـود متخيـلاً الأشياء المبـهرة التى سيفـاجئ بها أولاده فى الصباح .

وطء السنين يثُـقل خطوى واهتـياج المـاء فى النوافيـر ينعش روحى . ماذا تبـقى لى بعد كل هذا العمر غـير وجع المفـاصل وتقطع أنفاسى ؟ .. ليتنى ما اختبـأت من طائر الحب . ليت براثنه تخطفتنى وأخذتنى إلى حيث لا أدرى ولا أطيق . تـعـال أيهــذا الـطائر وادفع بـرذاذ هاتيك النـافـورة المحـاصرة بأعـمدة الصـوديوم ومربعـات الجرانيت الملون إلـى وجهى . الميدان فارغ إلا من تعاستى والتباسى ومواء القطة التى لا أراها ، فاغمرنى يا طائر الخرافة بهذا الرذاذ ، وضمـخنى بنداوة العشق فالدم فى عروقى لم يتخثر ، والقلب به بعض من لدونه ما يزال .

يالظى الحلم الذى يتوهج وقتـما يشاء ويخبو وقتـما لا أريد ، أحذرك البروق التى تـصطرع فى سمائى . صـمتُ الليل وصخبُ المـاء يشتـجران وسط المـيدان ، والصـوديوم ينز صـديده فوق ألوان الـجرانيت ، كـعبـاى يهـتزان فوق الأسـلفت ، والقطة الخفـية لا تبـين فتـعال أيهـذا الطائر . كم أتشهاك ياذا البراثن ، لكنى كعهدى - ما زلتُ أخشاك . لا تبالى باضطرابى وتعال . رَوِّح عن قلبى . ارفع عنه أثقـاله . لكنى ككل مرة سأختبئ منك . لا أقدر عليك فأنت صنو المهالك ورفيق الردى .

هاأنذا أزحف بقدمى إلى النافـورة واستعـد. اهبط إلى البركة واستـعد. ارفع رأسى واستعد. لكنك لا تأتـى . لا تفرد جناحيك وترفرف . لا تدوى بزعقتك الراجفة . وهاهم ينبثـقون لا أعرف من أين ؟ .. القيح يهمى فوق

رؤوسهم ويتقدمون. يتحلقون النافورة ويتزاحمون . يحدقون فى ويطرقعون أكفهم عجباً واستهزاء. أحدهم يتخطى حاجز البركة ويمد يده . يرفعنى فينالنى صديد الصوديوم وقيح الجرانيت . يطيب خاطرى ويمشى بى فوق الأسفلت فيعاودنى وجع المفاصل . شعرى مهدل تحت الطرحة والماء يسيل من أطرافى. أنظر اليه وأقلب بصرى الكليل فى بهمة السماء. أنادى طائرى أن يأتى ، لكنه لا يأتى . والرجل ما يزال يسندنى وخطوه مثل خطوى بطئ .. بطئ .. بطئ .



نبـــض النـــار فى زبـــد البحـــر

١ - القروية التى تغنى أمام البحر
٢- امتـــــلاء
٣- العـــابرون
٤- وجه من ضوء وغيمة من بنفسج
٥- الجورب كحلى والخطى واثقة
٦- غواية الأزرق الفسيح
٧- فنـــــار
٨- زنبقـــــة

يا لروعة ظهرها المشدود ، وضفيرتيها المعقودتين من الخلف . انظر إليها إذ تقف أمام البحر وتغنى ، تلك القروية المستوحدة بنفسها . كفّاها تحت إبطيها ، والزهور فوق فستانها تهتز . تستقبل الأفق ولا تكاد تُحس بالماء إذ يلامس قدميها . بُرعم تفتق عن إمرأة من نغم ، ينسرب فيملأ أجواز الفضاء، ويدخلنا فيتوزع بين الشرايين والأوردة نوراً وضياءً .

قفا حيث أنتما ، أو تعاليا محاذرين ، تعاليا برفق ، فياله من عبير ذلك الذى يتضوع فينفى رائحة البحر ويلفنا . ألا يدهشكما ذلك النخيل الباسق من خلفها ، وبالأمس لم يكن له من أثر ؟ .. وهاتيك النوارس الهاجعة فوق الماء ، ألا تثيركما ؟ .. لكأنها بساط مُرقّش فُرش على عجل . جميعها يشرئب ويرنو إليها . والماء من تحتها بلاطات من الأخضر والأزرق والرصاصى . من أين جاءت أسراب تلك النوارس ، ولم يكن بين الماء والسماء سوى غراب بحر وحيد ، يحوم أسفل شمس تبرقعت بالغيم ، وارتكنت إلى سحابة حُبلى بالرمادى ؟

اخفضا بصريكما إلى قدميها . أين سراطين البحر ، وعفونة القواقع والمحارات الميتة ؟.. زيوت البواخر والزبد المُعكّر ونفايات الهلكى اختفتْ . الرمل أبيض من حولكما، أما تلحظان ؟ .. نائم ومستريح ، فلا خربشات من جنادب ولا أخاديد من حلازين ، دققا ، لا أثر لأقدامكما. لا

آثر لقدميها. أين تموجات وتعاريج رياح الأمس العصفة ؟ كم هو بهيج ائتلاق النترات المذهبة بالضياء من حولها . لن تحصياها إن أردتما ، فتابعاها إذ تضوى بالنور لتحيطها بتلك الهالة من اللألاء الحانى .

البراح الوسيع مُفعم بالسلسال المنساب من فيها، وضجيج الأسفلت كَفّ وتلاشى ، فأصيخا السمع . هذه أسلاك التليفون انقلبتْ عريشاً من أوراق اللبلاب وأزهار ست الحسن ، فلا تستسلما لرعشة الانتشاء ، والزما جوارى ، فلعل هذه المراكب المقلوبة تأمن لنا ولا تكشفنا إذ نتمتع بكل هذا البهاء .

لو ملتما قليلاً وتوجهتماها من هذه الناحية فسيكون ذلك أفضل . من هنا يمنحكما اللألاء نفسه ويسمح لأعينكما باختراقه ، انظر إلى صفحة خدها ، إلى تلك العذوبة التى تفيض من لحظها ، وإلى ألق ذلك الجانب من جبينها . ياله من وجه يبدو عصياً على الإمساك بملامحه . كم هو مُريح وبرئ وآسر . نعم هو مُريح وبرئ وآسر . لا .. لا تقولا " ربما يبكى براءة ضاعت " . أى إثم تقترفان ؟ .. تحمما بوضاءتها ، واسبحا فى ملكوتها ، واتركا ما تهجسان به من هرطقات. لعلها ما أقدمت على شق أرض بفأس، أو ضرب دابة بسوط . ويلكما ، اخرجا مما حصرتما نفسيكما فيه . ما أظنها يوماً أزهقت روح آفة ، أو قدرت على قصم سنبلة ، فما أعمق اللجة التى أو قعتمانى فيها. لكنى منتشل نفسى منها.أنا منتشل نفسى منها ، فالخفى فيها جلى والجلى فيها خفى .

أرأيتما تلك الحنية الباهرة عند ملتقى ذلك الجانب من شفتيها ؟ .. أى سحر هذا الذى سُكب فيها .. أى أكسير ، وأية قوة جاذبة . لا تقتربا منها .

لا تكلماها. تواريا ولا تُرياها نفسيكما ، فالأفق رحيب ، والسماء مقببة ، وهى فى المنتصف ، أيكة تستجيب لاهتزازات النغم والأثير . وهاهو ذا الصوت الرخيم ترسله فيتصاعد إلى الشمس . يحف بنقابها ، ويهبط إلى الماء . يهز رقاب النوارس ، ويسرى فى خلايانا . يدغدغ مراكز الحس فينا ، فتماسكا وامسكا بى حتى لا نضيع سكراً أو إفاقة ، فما نحن إلا متلصصون ضعاف أنالتهم الصدفة نعمة التمتع بما لم يدر بخلد أى منهم . دعا كل شئ على سجيته واحفظا اللحظة بداخليكما إنها كنزنا الذى حصلنا عليه . امسكانى برفق ولا تخدشا طرفاً من هذا البهاء ، فلن نسامح أنفسنا إن عكرنا عليها صفوها .

لو تركتمانى سأنطلق إليها . تلاطم لواعج الوجد يأخذ بناصيتى إليها . احرصا علىّ وإلا انثلتُ منكما انثيالاً . ستجذبنى لأقعى تحت قدميها . عندى من الطيش ما يكفى لأن أجثو تحت نعليها . لن أنطق إلا بما تهوى . لن أفعل إلا ما ترضى . إن شاءت سأستبيح لنفسي متعة التخبط فى مفازات الالتباس المؤدية إليها ، لن أتركها أبداً . لن أهتك ما تبيحه لى من أسرارها ، تلك القروية التى تغنى ، فخففا قبضا تكما علىّ .

أتريان انبجاس الماء ؟ .. أى شئ يمور فى بطنك أبهذا البحر الوسيع بلا نهاية ، العميق بلا غور ؟ .. كأن بلاطانك جيلاتين يترجرج . سألتكما بما تمتعتما به منها إلا تركتمانى . أما تريان ؟ .. دع يا هذا قميصى . وأنت لا تخاصرنى. ثمة سعيفات خضراء تنتفض، تشق جيلاتين البحر وتنتفض. طَلْعُ يظهر، وجذوع تبين ،غنى أيتها القروية غنى . ابذلى نفسك فى الغناء. هاأنذا آتيك وأتوق للتلاشى فيك . استغشيا ثيابكما واتركانى أيها الفتيان.

اعطفا عليّ وخليانى ، فكم أنا مشوق للغناء على أعتاب هذا الكائن المستحيل .

انظرا ..إن النوارس لتعجب فتدير رقابها صوب المعجزة إذ تتخلق ، هاهى ذى الجذوع تعلو والسعيفات تكبر وتنتفش . ياله من نخيل سامق. لو حكينا من سيصدق ؟ .. نخيل فى البر ونخيل فى الماء ، والنوارس فى هجعتها لا تفعل أكثر من أن ترنو ، والصوت الرخيم ما يزال يتمدد ويملأ الفضاء . وهى كما هى ، فى هالة من لألائها تقف .

ويحنا .. دون أن ندرى غيرتْ فى وقفتها . ثمة ساق تقدمت ، وجذعها للأمام مال ، هاهى تنزع كفيها من تحت إبطيها ، وتدفع بذراعيها للخلف . يإلهى .. أى التياث ذلك الذى يغشى منافذى ؟ .. ليسا بذراعين . إنهما جناحان . جناحان مريشان . ها .. إنها تستحيل إلى يمامة . زهورها انقلبت زركشات حمراء وخضراء . بهالتها تخترق مويجات النغم وتنطلق فى أجواز الفضاء ابعدا عنى لا تمسكانى . الشمس نزعت نقابها وتركتْ متكأها. السحابة تقلقلت بحملها . ما فائدتى وأنا أحمحم بين أذرعكما بظمأى ؟ ... انظرا ، النوارس جفلتْ لتوها وبدأت فى الصياح .. وهاهى بجناحها تميد بين سعف البر وسعف البحر وتطير.

امتـــــــلاء

انفجر الـزبد عن ضباب اندفق على قشـور البكلويز وأم الخلول وأظافر الجنية . توقفتُ عن متابعة زحف الخنافس والحلازين فرأيته أبيض ثخينا . يندلق باتجاه الرمل الناشف ، ويبتلع المراكب والفلين ، وخن أم عبده الذى اتخذنه مستقراً صباحياً لها، تنادى منه ابنها الذى خرج إلى البحر ولم يعد . انتـفـضتُ فـانتـعش وفـار وانهـمـر علـى أخـرام السـراطين ، وطال أبراج الغطاسين وخـفر السـواحل . خفت فتكوم واندفع وحـشيـاً صاخبـاً وامتط وبزغتْ منه أذرع امتدتْ فى كل اتجاه تلف وتخمش كل ما تطاله.

انتعلتُ شبشبى ولملمتُ فستانى وجريتُ فجرى خلفى . هائجاً متورماً رأيته خلـفى . يلاحقنى. لكأنه يقـصدنى أنا . لكأنه مـا انطلق إلا من أجلى أنا. لذتُ بأراجيح الـصغار ونخيلات المحـبين فاكـتسحـها . بالشـماسى والكبـائن وأكشاك المـصطافين فـأخفـاها . ببلورة الفنار فـأغطسهـا. حتى مـساحـات النجـيل التى طالمـا جلستُ وغنيت وغـفـوتُ فوقـهـا دهسهـا وغطاها.

وثبتُ إلى الكورنيش ومنيـتُ نفسى بأمـان البيـوت الناعسـة ، لكن يده لحقتنى . التفّتْ حول زندى وانزلقت حتى كوعى ثم أمسكتْ بذراعى كلها . بيضاء ثخينة ، ارتعدت وشعرتُ بها إذ تثلج . سمعتُ له زحيراً ودمدمة ، فيـما أخذت الدماء تفـور فى عروقى وتهدر. درتُ حـول نفسى وتملصتُ

وانتزعت ذراعى قبل أن تنخلع . قبض على الأخرى ، ومنها انسرب فاحتوى صدرى وهصر ثدى وجذبنى إليه . عضضته وجريتُ فأمسكنى من خصرى، رققتُ بطنى وانزلقت من قبضته وصرخت مستنجدة بظل خايلنى، فلطم فمى وشد شعرى وجرنى إليه ، تواثبتُ متحملة الألم وفقدان شبشبى ، وجريتُ فأمسكنى من ساقى وسحبنى . كبوتُ ونهضتُ وحجلتُ ومددتُ كفىّ باتجاه الظل البعيد ، لكنه شدنى وانقذف فوقى وضمنى الضمة التى أرجفتنى .

كثيفٌ ، ثخينٌ ، وأبيض. لدهشتى انقلبتْ دمدمته وجيباً، وهدأ زحيره ، فزايلنى رعبى . مس خدى وجبهتى ، وشعرت بنفشانه فوق شفتى ، وبفورانه إذ يتخلل شعرى ، فغزانى قدرٌ هائلٌ من الاطمئنان وتركته يفعل ما يشاء ، فقبّلنى وقلّبنى ودفننى فى صدره واحتوانى . حملنى وهرول بى ، ثم أوقفنى ودار بى يراقصنى فوق ماء يترجرج. لكأنه ثبج الموج ، لكأنه العميق الأخضر ، انتشيتُ وتفتحتُ له، وانزلقت من فستانى، وقلت : "هئتُ لك" ، فلفنى وراح ينسرب إلى من ثقوبى ومن مسامى . يجوس فى داخلى ويجول . شممتُ رائحتة إذ تختلط بدمى ، وسمعتُ خرير الماء من تحتى فار تميتُ فوقه مفتوحة العينين ، مأخوذة بمشاعر الخدر والإمتلاء .

اترك المـاء واخرج .. تعـال .. إجر .. لن تـصادفـها أبداً فى مـثل هذه الحالة . هاهى تجلس كالعادة تحت الشمسية عجوزاً كما هى ، مغضنة كما هى ، شـوهاء وعرجـاء وبكماء .. لكنهـا ترسم هذه المرة .. ترسـم صوراً جميلة للبـحر وللنوارس ولأجساد الفتيـة والفتيات. للفتيـة سيقان وأذرع ، وللفتيات وجوه تنطق بالبهاء، والنوارس مرحة ، والبحر أزرق ، ناعم .

انتبه..إنها تغادر مقعدها وتحجل باتجاه العابرين.وجهها يطفح بالبشر، وعيناها ينبوعا فـرح وسرور. انظر . إنها تبتسم لهم وتشيـر باتجاه لوحاتها. تتـقافـز أمـامهم وتكاد تمـسك بأذرعـهم .. لكنهم كـالعادة يجـفلون منهـا ويبتعدون .

شعرها الفاحم يلف وجهها . عبثاً أحاول تبين ملامح هذا الوجه . عبثاً أحاول رؤية عينيها .. خديها ... شفتيها .. أى شئ قد يزيدنى معرفة بها ، فنورها يُغشى .. آه أيها النور .. آه أيتها الوضاءة .. كيف يمكن لمثلى أن يسبر غورك ويتماهى فيك ؟

أرفعُ كفّى فوق عينى لأُحد من بصرى فيتغشانى بهاؤها . لكأنها تخلقتْ من نور . لكأنها الجلال مجسداً . من ورائها تتقاطع الأخيلة وتتناحر . تفور وتهمد . تنبطح وتتقافز . وضوؤها فوق الكل طاغ .

تتأبى وتأخذ صدارة المشهد . لولا الشعر الفاحم والرداء المنساب لما تحددتْ . لكنها هى .. نعم هى .. هى التى أهفو إليها وأتوق للتوحد بها .. معها .. وفيها .

لو خفّ الضوء للحظة . لو شفّ رداؤها قليلاً . لو بانت ملامحها .. لو زالت الصراعات من خلفها .

لكأنى أسمع صوتا هو زمجرة أو زئير .. عواء أو نعيق بل هو نباح .. نعم نباح .. وتلك غيمة .. نعم غيمة .. غيمة لها لون البنفسج وشكل البرتقال . فى الأسفل منها رأس كلب . رأس مرفوعة للأعلى ، وعينان جاحظتان .

تتواثب الأخيلة باتجاه برتقالة الوهج . تهشها . تبعدها. لا .. بل تحاول .. تتقافز وتحاول .. فتميد الغيمة . تروغ وتعلو وتظل فى السمت . فى السمت تقريباً . تفيض بالبهاء والبنفسج . وفى الأمام هى هى كما هى . تثبت الضوء وتبهر عينى .

لا أملك غير النظر إليها . تشمخ بأنف لا أراه لكنى أحس به . من هزة رأسها وميلة شعرها تبين حركة الوجه النورانى . حركة للأعلى .. فتميع برتقالة البنفسج .. تتماوج .. تمتط وتنبسط .. تتبدل وتتحول لكأنها الآن سحابة مثقلة بالبنفسج .

هاهى الأخيلة تتطلع إليها . قاماتها تطول .. " هش .. هش " . تكاد تصم أذنى " . مسلكها يشى بالخوف . يصرخ به . والكلب جالس على قائميه الخلفيين ، يمد عنقه وينبح . عيناه على جحوظهما ما تزالا. وهى هى بنورها الغاشى وقوامها الفتان تتصدر المشهد .

يميل الوجه البهى صوب البنفسج فيسيل ويهمى حبات ثقيلة تصبغ زحام الأخيلة وترديها فتسقط ولا تنهض . تذوب وتترقرق ماء أزرق تحت قدميها. يمتد ويتماهى فى ماء البحر ، فأشمر عن ساقى وأخوض فيه سعيداً لأنه يجمعنى وإياها ،فما زلتُ لا أقدر على لمسها أو الاقتراب منها ، والكلب الذي اختفى ما يزال ينبح .

الجـورب شـفاف . كـحلى مطرز . يصـعـد لأعلى ، إلى حـيث يلتف دانتيـلا الجوبة بالفـخدين ، فوق الركـبتين بشـبر أو يزيد . الجـوبة زرقاء ، بسيطة . تضيق عند الردفين وتعلو حتى الخصر المكشوف . مكشوف فيما يشـبه الحـزام .. تتوسطه السـرة وتعلوه البلوزة القـصـيرة المـشمـورة عند النهدين المشدودين بسوتيان يشد ولا يبين له أثر .

تمشى الفـتاة بزرقتها وسط الراقـدين والجالسين والماشـين تميس بين المقـاعد والشـماسى وأحبـال الخيام . بشـقة تمـشى. تخز بكعبـيهـا الرمال وتدهس القـواقع. إلى أين تمضى ؟ غـير مـعروف بالضـبط ، لكنها واثـقة الخطو تمـشى . متبـخـتـرة تتأود وتمـيد . رأسهـا عال وعـيناها إلى اللاشى تنظران .

تعلم أن فريقاً متزايداً من الفتـيان يمشى وراءها . تقاطرهم يمتد طويلاً ولهاثهم تسـمعـه . كلما خطتْ خطوة وثب نائم وانقـذف جالس واستـبار ماش.لغط الآن يتـلاطم خلفها ، وأصـوات تأوهات تأتيها . يتدافـعون الآن بالمناكب. هى تعلم وتمـشى بحذاء البـحر. أطراف المـوج تلحس آثارها، والعراة وسط الماء يتـوقفون . يتركون نسائهم ويتقـدمون وهى لاهية عنهم باللاشئ الممتدفى الفراغ بين السما وضجيج الرمل والماء .

لا يمكن أن تمشى إلى مالانهاية . اللسان الصخرى يبين. انتهى الشاطئ

فلتستدر عـائدة . لكن عيون الفتيان فأجأتهـا فارتبكت . سقطت عيناها إلى الرمل . كـأن مـا من بنت سواها . كـأن الشـاطئ قـد خلا إلا منـها . لمـاذا ينظرون هكذا ؟.. اضطربت خطواتهافجرت. خَزّتْ المـشمعات المفروشة ووطأت أجساد المسترخين من العجـائز . اسقطت مقاعد وشماسى وظلتْ تجرى ، ومـامن أحد كـان يجرى وراءها . ما من أحـد على الاطلاق يرتاد الشاطئ .

أقبـلا علىّ .أسنانهما تلمع إذ يضحـكان. من أعينهما تُطل الرغـبة فى العـبث . عرفـتهـمـا .. قلتُ :" أنت حمـدى وأنت طارق " . تبـادلا النظر وقهقها .سألتُ : " كيف عرفـتما أننى هنا؟ " لم يردا. فقط التفت كل منهما إلى الآخرثم مـدّ ذراعاً .. قلت: " مـاذا تنويان؟" ، فجذبانـى إلي الماء كل واحد من جهة . " فستانى سيبتل" . " ليبتل" .

الزبد ليس نظيفاً. ملغوم بالزيت والرمل وقطع الأخشاب والبلاستيك، وبقايا الأطعـمة . هشيم القـواقع يخز قـدمى . رفعانى وتجـاوزا بى شريط النفـايات والعكارة.. الـمـاء الآن أزرق. تنبـهتُ إلى انحـدارات القـاع من تحتى. هما أيضا تنبها. تركانى فأخذت أدف بذراعى وساقىّ ، وهما أيضا. أحسستُ بفستـانى ينتفخ .قلتُ:" نفسى قصيرفأرجـعانى " . أشار حمدى باتجـاه الأفق : " الجزيرة " . وقـال طارق :" كـونى معنا " وغـاصا، فـيمـا ظللت طافية .

انقلبت علـى ظهـرى وتأملت فُسـتـانى المـقـبب والسـمـاء الزرقـاء والنوارس التى تهيم فى الفراغ زاعقة . تذكرت الذين تركتهم على الشاطئ هناك وهممتُ بالرجوع ،إلا أنهما انبثقا من الماء وأدارانى صوب الجزيرة وسحبانى إليها. قلتُ : " لا .. أرجـعانى " .قال حمدى :" يمكنك أن تقفى الآن ؟ . وقفتُ فإذا بالماء لا يكاد يصل إلى ركبتّى. قال طارق : " هذه هى الجزيرة .. أول جزيرة ". نظرت أسفل منى فإذا بالماء كصفحة الزجاج .

رائق شفّاف ، ورأيت الأسماك الصغيرة تسبح بين سيقاننا والقواقع اللابدة بالرمل تُخرج ألسنتها وتلتقط أشياء لا أرها . هتفت: " انظر يا حمدى .. انظر يا طارق " . قالا: " نعم" .. " نعم" انثنيتُ واغترفتُ بعض الماء فخرجتْ لى سمكة صغيرة شفافة أكاد أرى فقاراتها وأمعاءها. قلتُ:" انظر".لكنها انسربت مع الماء المتساقط وزاغتْ فى الأزرق الرقراق .

قال حمدى :" تعالى إلى الجزيرة الثانية ". قلتُ: " لا .. لا أستطيع " قال طارق:" نحن نستطيع. " قلتُ : " أبقيانى أو أرجعانى ". قال حمدى :" هناك الماء أقل". وقال طارق : "عندما يعمق الماء ما عليك إلا الطفو ونحن نسحبك " . نظرت للنوراس التى تظللنا وإلى الشاطئ الذى اختفت مظلاته وخيامه فخفتُ. قلتُ :" أهلى يبحثون عنى الآن " . لكنهما سحبانى إلى الماء العميق وجدفا .

قالا : " ما رأيك ؟". وقفتُ ، فإذا بالماء يغطى بالكاد منتصف ساقى ، ورأيت المغموس فيه منهما يتعرج . كذلك المغموس من ساقىّ كل من حمدى وطارق . وقلتُ : " الماء هنا أصفى ما يكون " . قالا :

" نعم " .. " نعم " . قلت : "لو لمياه الشط مثل هذا الصفاء .. " .

قال حمدى :"فى الجزيرة الثالثة الماء أصفى ". وقال طارق:"فى الجزيرة الثالثة الماء أقل"..قلتُ :" لكن المسافة إلى هناك لا شك عميقة". قال حمدى " أعمق ما تكون " . وأكمل طارق : " وأطول ما تكون " . قلتُ :" سأتمدد ، وإن أردتما سحبى إلى هناك فاسحبانى " . وتقدمتهما إلى حافة الماء العميق قبل أن أُسْلِم نفسى لهما .

ما غمستُ فيه قدمَّى ، فى الجزيرة الثالثة ، لم يكن ماء ، بل ورقة سوليفان شفافة لالون لها . ورقة اخترقتها قدماى بالكاد ثم التأمت بحنو حول كاحلى . الرمل أبيض تحت قدمى ، ناعم بلا ثنيات ، لا يتحرك . من فورى رفعت رأسى إليهما وقلتُ :" خذانى إلى الجزيرة الرابعة " .

تسمرا . لحظة ثم تبادلا النظر . بعدها واجهانى. قال حمدى :" لا توجد جريزة رابعة " . وقال طارق :" من هنا لا يوجد سوى الأقراش ووحش البحر " . ضربتُ ثوبى واتجهت صوب الأفق . صرخ حمدى : " ارجعى " . وصاح طارق :" أفيقى". لكننى نظرتُ إلى الأزرق الفسيح. ووقفتُ عند حافة الماء العميق وقلتُ لهما:" اتبعانى ".

فـــــنار

شق ضوء الفـنار عتمـة السمـاء والماء فبـانتْ من بطن الليل أشـياءٌ ثم عادتْ فـالتأمتْ . قالتْ: " نعم أحـبيتـه ". زعقتْ نوارس ورفـرفتْ أجنحة غيرمرئية ." لازمنى كظلى ، فأحببته " . تهشمتْ أضواء المصابيح وسالتْ فـوق الماء خلـيطاً مهـوش الألوان . " لكنه سـافـر". شقّتْ سـمكة مـزيج الألوان فامـتد وترجرج وأحاط بالقـوارب الراسية ." قال يجب أن نسـافر ، وقلتُ يجب أن نبقى ، فتركنى وركب الماء " .

حامَ عصفور ونقر الضوء المترجرج ، فيما خلعتْ خاتماً ووضعته على الترابيـزة : " هذا خاتمة "، وفـتحت حقـيبتـها : " وهذه خطاباته " ، ودست يدها : " وهذا دفتـر تذكاراتى " . طوحت بهـا جميـعاً فتناثر المـاء والضوء وطار العصفور .

نهضتْ وواجهتْ جليسها : " قل له .. قل له ما رأيت " . ومضتْ ، فيما عاد ضوء الفنار يشق عتمة السـماء والماء ، وبانت من بطن الليل أشياء ثم عادتْ فالتأمت.

هسيس البحر هـناك فى البعـيد . وفى البـعيد أيضـاً مدينه الأسـفلت . استلقتْ تحت شجرة الكافور غير مـبالية بندارة النجيل أو بالقشعريرة التى هزت جسدها وأرعـشته .توسـدت ساعـديهـا وتمددت فى اسـترخـاء . مسـتسلمة لما ترجـوه أن يأتى، راحت تتابع حزم الضـوء المنسكبة من بين طيات السحب .أغلقتْ عينيها وتممت : " هل يمكن أن يجئ؟ "

فتـحتهمـا فإذا بالوجه الذى يفـيض بهاء يكاد يلاصق وجهـها . اتكأت على مرفقيـها وتأملته . فى خلاياها انتشاء وبأطرافهـا خدر . دس فى مفرق شعرها زنبقـته البيضاء. زنبقة هى ومـضة من ألق . فى المكان الذى تعودته تمامـاً دسها ، فتـغشتهـا السكينة وغمرها الضـوء . تملتْ من صفاء عـينيه النجلاوين إذ تهيمان بوجههـا وتفتحت له . لكنه نهض واعتلى حزمة ضوء وتحرك صـاعداً إلى أن أخـفتـه السحب. ومن بعـيد جاءتـها جلبة المـدينة عاليـة مدوية ، فيـما انطفأ ألق الزنبـقة ، فتمـنت لو اختصر البـحر المســافة وجاءها الآن .. الآن .. فى التو واللحظة .

عطـــور تتأوه تحت ســدادات القواريــــر



رأت تعاستها مجسدة فى بشاعة وجهها إذ ينقبض ويتمدد ويتلوى. كل ما بها طبعته المرآة أمامها . المغارات والكهوف والسراديب التى تصفر فيها الريح ، أنفها ذو الندبة وزرقـة العروق النافرة عند الصدغـين . المسام التى انتزعتْ منها الشعيرات لتوها ، وانثناءة زاويتى الشـفتين النحيلتين كخيطين نفشهما البلل .

ككل مرة فرشت أمـها الفستـان فوق السرير . كعادتهـا سوته ولم تنس التنهيدة . قالت : " بسرعة " ، ثم خرجتْ وتركتها لوحدتها ، فبكتْ .

بين قـوارير العطر وعلب البودرة اخـتلط نثار الدمـوع بالمخـاط الذى همى فانـتبهت . خلعت جلـبابها ولم تقـدر على مواجـهة تعـرجات عظام صـدرها . مرتعـشة وضـعت السوتـيان الذى يوحى بامـتلاء لا وجـود له . بعدها عـبأت نفسهـا فى الفستان أو دلقـته فوق جسـمها ،لا يهم ما فـعلته المهم أنها تدارت فيه .

بالمنديل مسحتْ مـا سَحَّ على خديها . تمخطتْ فـيه ودعكتْ به أرنبة أنفها ثم رمتـه فوق بلور التسريحة . متكاسلة فـتحت علبة بودرة وأمسكت بقلم روج . مـررتْ المـاسكرا فـوق رمـوشـهـا ، وبالبـدارة تمـهلتْ فـوق محجرى عينيها . علقت لآلئهـا المزيفة فى أذنيها وثبتتْ البروش ذا الريشة فوق صدرها ، ولم تنس الإيشارب القصير . التقطته وأخفتْ به الجزء كثير

الحنيـات فى عنقـها . تذكـرت " كان يـجب أن أنزع الدبابيس وأفك دوائر الرولوه قبـل الإيشـارب ، لكن لا بأس " ، فكتْ شعـرها وهيـجتـه ثم استعرضتْ المخلوقة المطبوعة أمـامها من قمتها إلى أسفلها. " لا بأس من بعض الرميل هنا .. والآى شـادو لازم هنا " . هى الآن أكثر حماسـا. لمعة الأنف أطفأتهـا ، ونقط العرق التى انبثقت فـوق شفتيهـا جففتهـا. التقطت قارورة عطـر ورشت منها على شـعرها ، وخلف أذنيـها ، ورقـبتـها ، وكل موضع يمكن أن ترشه . تشممتْ نفسـها " لا بأس "، غير أنها حارت . ماذا تفـعل بثنيات كـم الفسـتان عنـد الإبطين. ستكشف هـذه الثنيات هزالهـا. شدتْ الكولة إلى الخلف وحشتْ السوتيان بعدد من المناديل الورقية .

ابتـسمتْ لمـا رأته . نعم ابتسـمتْ . بدأ الأمر بارتعـاشة فى الشـفتـين ونظرة اعجاب بما فعلتْ ، فلم يعد سوى الجـورب والحذاء وتستعد للقيا الرجل الذى ينتظر فى غرفة الصالون .

غيمة ملونة

(١)

هى الآن فى الطابق الحادى والعشرين . كلما نظرت للأسفل داهمها الدوار . أغلقتْ النافذة وألصقت خدها بالزجاج . بارد . ثلجى . أمامها السماء . بطن سوداء تخزها العمائر المقابلة . وفى البعيد .. هناك .. تحت .. بيوت الحى الذى جاءت منه .. وطيئة ... متلاحمة . ذبالاتها تكشف كثرة المسهدين فيها . غيمة رقيقة هشة انتشرت قرب عينيها . هى انفاسها وقد حال الزجاج بينها وبين الانعتاق . لكأنها نفثة اسبراى أو زَخَّة عطر. تتلون بألوان النيون خفى المصدر، أحمر . أصفر . أزرق . حصرتها بكفيها وتابعتْ الرطوبة إذ تسرى حتى رسغيها . لسعاته خفيفة متواترة ما لبثت أن تلاشت ، أيهما غلب الآخر فسكن ، دفؤها أم رطوبة الزجاج ؟ .. أخرجت أكثر من زفرة فازدادتْ الغيمة انتشاراً . سحبتْ كفيها فرأتْ حدوداً قد ارتسمت ، والغيمة طويلة متمدة .. "هذه الغيمة هى جسدى حينما استقلى له" ." لكأن هذه البطن هى بطنى "." وهذه القطرة هى سُرَّتى " ." هاهى ذى علامات أصابعة إذ تجوس وتضغط "." حمرة النيون هى دمى " . " دمى المحتبس ، دمى الفوار " . لم تحتمل . أحسَّتْ به يخور إذ تتملكه الرعشة . رائحة السجائر فى فمه تنفذ إليها. تخنقها. صفرة النيون وزرقته تعكس

حالة الجسد الضبابى. " أى شيطان أعطاك أيتها الزفرات شكل جسدى ؟ ". أعملتْ سبابتها يميناً ويساراً وقطعت كل ثنية أحسست بزحيرة فوقها حملقت فى الأشلاء إذ ترتعش وتشخب ماء متقطرا وتنهدت .

(٢)

بين مسندى الفوتيه تقضم أظافرها وتنتظر . المجلة النسائية بعيدة عنها ومملة ، والمكيف معطل. بينه وبين التليفزيون ترابيزة الفيديو . خزانة شرائطه مزدحمة . بكل ما هو مقزز .فكرت. " تأخر " . لن تفلح الأغطية في حفظ الأكل دافئاً فوق السفرة . سيأتى بسيجارته وأخباره . بعضها صحيح وأكثرها ملفق . ينطلق بها لسانه كلما جاء ليوهمها بأنه معنى بمد خيوط التواصل. عن المكتب يتكلم ، عن المرور وأسعار أربطة العنق وزحمة الأسانسير . متحركا بين الشماعة والحمام وغرفة السفرة سيخلع ما عليه ويرتدى بيجامته. سيقول لها أن الأكل بارد . ومع هذا سيزدرده . من مكانها ستسمع طرقعات الملعقة والشوكة ، صوت تمزق الطعام تحت أضراسه . ربما يسأل عن قمصانه إن كانت قدكوتها ، وجواربه إن كانت قد غسلتها ، لكنه سيلتقط حبة الضغط من فوق الكومودينو ويجرع من الكوب الذى أعدته له ويتجشأ . سيشعل سيجارة ضارباً بكلام الطبيب عرض الحائط ، ويجلس إلى الكمبيوتر . يضع الدسك ويتخير برنامج الألعاب معلناً تحديه للجهاز الذى يغلبه دائماً ، بعد حركتين أو ثلاث سينهض متبرماً ويتخير عدداً من القنوات تعلم يقيناً أنه سيملها سريعا ،

فيلتقط شريطاً يدسه فى الفيديو ثم يندفس تحت الأغطية ويأخذ فى مراقبة الشاشة ، التى يتماوج فوقها اللحم الملتهب ، واضعاً علبة السجائر والولاعة والمنفضة فوق بطنه ، إلى أن يعلو شخيره ، وهى كما هى جالسة فى مكانها ترقب من وراء الزجاج بطن السماء والعمائر التى تخزها . ويحدث أن ينتهى الشريط فلا تغلق الجهاز ولا ترفع الأشياء الموضوعة فوق بطنه ،لكنها تنهض إلى الزجاج ، وتبحث فى التماعات الذبالات بين البيوت الوطيئة عن لمعة كانت تعرفها، فتعود الغيمة من جديد . ومن جديد تنعكس عليها ألوان النيون خفى المصدر .

فـــم ملــــوى

(١)

تأتى بأشيـاء عجـيبة المـرأة التى تدخن. تجلس هادئة . هذا صـحيح ، لكنها ترسـم بالدخان قلوباً وأمواجـاً وحمامـاً يطير. تبنى فى الفـراغ بيوتا، ترفع أبراجاً وتزرع شجـراً، تُسَيَّر سحباً كثيفة ، تنفخ فيها فـتسقطها زهوراً ومطراً.

(٢)

من مكمنى رأيتـهـا ترسم بالخيط الـتمـصاعـد من فـمهـا دائرة . دائرة واحدة .. وحيدة .. ثنتْ الخط فرسمتْ حاجباً وأنفاً ، بنفثتين ثبتتْ عينين . استملـتْ الحاجب الناقص والصقتْ الأذنين. ارعشتْ خطاً فـالتوى الفم ، يا للوجه الآدمى المدور . أصلع حزين ومشـحون بمالا أدريه من مشاعر . التواءة الفم هى التى أشاعتْ كل هذه الحـزن . نعم هى التواءة الفم . يالها من هموم تلك المحتواه بين طرفى هذه الالتواءة يالها من انفعالات .

(٣)

الوجـه ترجرج وانضـغط . ما أسـرع ترجـرجه وانضـغاطه . سـرى فى الفراغ وامتط . السيجارة الآن فى يدها .يدها المرتعشة وأصابعها التى بلون النيكوتين . عيناها على الوجه إذ يتجمع وينفـرش . تختلج شفتاها ويموج صدغاها . لانضغاطة أسنانها صرير . أى رعدة تلك التى ترعشها هكذا فى جلسته؟ . أى سر وراء اكتمال هذا الوجه ومراقبتها لتشظيه؟

(٤)

هو الآن شئ غير الشئ . مطموس وممزق إلا الفم ، إلا الهموم التى بين طرفيه . بشفتيها، تلك المرأة المستوحدة بنفسها، تلوك كلاماً . السيجارة فى المطفأة زوت ، هى الآن تكلم نفسها .. تغمغم وتهمهم .. تُقَلِّبُ علبة سجائرها بين يديها ، والوجه فوقها مجرد نتف . نتف يوزعها الفراغ ويحتويها . يمتصها وتذوب فيه .. إلا الفم الملوى .. هذا المحموم الهائم . ينتقل من جدار إلى جدار . لا يصعد . لا يهبط . ولا تتغير التواءته . تنهدتْ ونفثتْ آهة .. آهة صامتة .. لا صوت لها .. لكنها أرعشت الفم الدخانى ، أسالته فى ذرات دقيقة قد تستعصى على الرؤية ، لكنها مبثوثة فى أجواء الغرفة ، أُحس بها وأوقن أنها لن تتبدد .

شــــرفتـــــان

تُمسك بالقلم . ما تشعر به ليس بخفقة صدر . لا .. ولا ارتعاشة جسد. تكتب فى الورق أمامها "إنه انسياب لكيانى وارتجاف لروحى"، وهو ما يزال عاكفاً على آلته،على قيد خطوتين منها، فى الشرفة الملاصقة ، يعزف مستجيباً لالهامات وحيه ، فتسرى أنغامه وتتسرب إلى داخلها وتأسرها، تذيب كل مرارات النهار ، تطهرها وتجلوها فتشع ضياء وسناء . يتحرك القلم فى يدها ويكتب أشعاراً وأغنيات حلوة . ملتاعة . تطفو مشاعرها فوق النغم الرائق . يلتقطها سن القلم ، يذيبها حنانا وشغفا . يمزجها بمداد من دمها، يتوقف النغم ولا تتوقف. تعلم أن الصباح قد أطل.لكنها إذ تسمع وقع الخطوات المغادرة ، وصرير باب الشرفة إذ يغلق، وتوقن أنه الآن بداخل غرفته ، تطوى الأوراق على ما بها من أشعار، وتفتح باب شرفتها ، وخفيفة متوثبة تلقى بما كتبتْ إلى الشرفة الملاصقة .

قـرطـــم

محـاطة بالدانتيلا والبـبغاوات تجلس فى شـرفتها الـمطلة على الشارع الغـارق فى هدوئه . دائما تجلس هـكذا ، وحيـدة إلا من ببغـاواتها . تمـد يدها إلى علبة القرطم وتقبض على حفنة منها . تؤرجـحها في كفيها وتُثبتُ بعضا منها على أطراف أصـابعها تلالاً صغيرة دائمة التزلزل . تعـود فتلمها وتلقى رؤوس الرجال بالحبة تلو الحبة . لكن أحداً لا يبالى ، وعيناً واحدة لا ترفع إليها . تُحدثها نفسهـا بأن تشير لأول ناظر بالصعود ، لكنها ترتعش فى كل مـرة وتلملم الدانتيـلا حول قـدها ، وتنهمك فى قـزقزة القـرطم .. وأكله .

تعاســـة

ربما لم تبد تعيسة وهى تتفحص وجهها فى المرآة ، فمن غير السهل أن تغزو التعاسة وجهاً مليحاً مدوراً ينضح بالحيوية مثل وجهها . لكنها بالقطع ليست مسرورة . ثمة شئ مخيف قد حدث . شئ مفزع . ستعترف. لن تخادع نفسها . لن تهرب ترواغ الوجه المبهور الذى . يطالعها . . نعم ما تخشاه قد وقع . فى غفلة منها وقع . ترفعت هذا صحيح . كابرت هذا واقع . شمخت وضربت كشحاً ، هذا ما حدث . الأكثر أنها تعالت على هاتيك الضعيفات اللائى يتباهين بذلتهن وانكسارهن. كل هذا فعلته واشتهرت به . لكن هاهى بلا مقدمات تجد نفسها مشغولة بالتفكير فيه . ذلك السمهرى ، عسلى العينين ، الذى تتدلى الفتيات من سلسلة مفاتيحه." أتراه الحب الذى اسهدنى؟"." أتراه الحب يا ربى ؟ " . " آه يا ويلى .. ". وعادت تتفحص وجهها ، وودت لو بكت .

مـــاكيـــــاج

ماكـياجها كـثيف ، أبيض . لا . ليس هذا ماكـياجاً . بل هو وجـه آخر وجه مـثبتٌ بلاصق أو بخـيوط من المطاط . لو رفعت الـشعر عن فـوديها وفحصتُ خلف أذنيها فلربما أظهرت ما هو خاف .. بالتأكيد هو وجه آخر. هذه الهشـاشة البيضاء المـتماسكة كيف تـكون مجرد ماكيـاج للوجه الذى كنتُ أظن أنى أعرفه ، وعيناها .. هاتان العينان ليستا سوى جُرحين يرجفان ويدفـان برموش هى وأسنان السـهام سـواء . الشفـتان قرمـزيتان . تنطـقان بالشـهوة ، والأنف مغـمور بالأبيض ، تبـين منه نقطتـان . مجرد نقطـتين ، سوداوين ، مـشوبتين بحمـرة دكناء . هاأنذا أشعر بنفسى أهيم بهـذا الوجه المستعار شغـفا . أى غموض هذا الذى يسربل هذا الوجه الذى ابحث فى قسماته فـلا أجد سوى الملاحة إذ تنفرش ألقاً يضئ بغـير ما نيران ظاهرة . ليس ثمة مـن ظل . حتى حنية الأنف وانثـناءة الحاجبـين المزجـجين يُطل منهما ذات الضوء الشفيف الحانى.مع كل هذا الانفساح فثمة شئ غامض. خـفى . أتراه فى رجفـة العينين يـختـفى ، أم فى اهتزازة زاويتى الشـفتـين يتأرجح، أم تراه قد ذوى فى هذا الضوء الذى أصـبحتُ لا أدرى حقاً ، هل ينسكب عليه أم ينبثق منه ؟ .. وددتُ لو اسـتجبتُ لنوازعى ونهلتُ من هذا الضـوء من هذا الوجـه . من هاتين الشـفتـين ، لو أمسكت بتـلابيب ذلك الغمـوض الشقى . لو ... أحسُ به أمامـى يضحك ويتشـقلب مستـهزئاً بى دون أن يبيـن ، ترى أى متعـة ، أيهذا الشئ الغـامض، يُمكن أن أجنيـها لو

ألصقت شفتي فوق الشفتين الخضيبتين ، أى رشف من رضابها سوف يذوب فى ويذوبنى ؟ ... آه لو تحممتُ بهذا الألق . لو تعريتُ ، وَعَرَّضتُ أعطافى لفيوضاته . لكنه ليس سوى وجه مستعار غير ذلك الوجه الذى كنتُ أظن أنى أعرفه .لا ليس هذا ماكياجا ، فلأعطها ظهرى، ولأنصرف.

كـــــابـــــة

خاطتْ أكفان كثيرين من أحبائها ، فما من مكان فى جسدها إلا أصابته منهم طعنه أو كدمـة. قال أبوها: أنت بنتٌ كئيبة . وقالت أمهـا : اضحكى تضحك لك الدنيا ، فنهضت وغـادرت مكمنها ، وسارتْ فى ذلك الصباح الباكر باتجاه المقابر .

غضـــوب

كلما غـضبتْ منه تفور وتثور . تحـطم الأثاث وتبقر الحشـايا . تنهال على الحوائط لكماً وركـلا، وعلى ملابسها تمزيقاً وشـقا ، قد ترطم زجاج النوافذ برأسـها فتكسرها ، وقـد تمسك بأمواسه وتقطع أوردتهـا ،لكنها لا تفكر للحظة أن توصـد الأبواب التى تفصـل بينها وبينه ، فـهى تعلم أنه فى كل مرة سيدخل ويريح رأسها على صدره .

شمعـــات تنوس فى مســـارب السفـــــر

---

١ - المحطة الأخيرة

٢ - اتكـــــاءة

٣- خجـــــل

٤ - باتجاه نفق المترو

٥ -مصرالواسعة العريضة

٦ - سفـــــر

الأتوبيس المضجر يقطع بنا الفراغ كأبطأ ما يكون. إلى جوارها أجلس، لكنها مشغولة بالأصفر المترامى . الخواء لا حدود له ، والهواء يشوينا . متودداً أمسك السأم برأسى . نفخ فى عينيّ وأسقط جفونى ، ضاقتْ الفواصل بين ذراعينا فتلامسنا . مالت رأسى إلى كتفها فأدارت وجهها ناحيتى . نعم بالتأكيد أدارت وجهها ناحيتى ، لكنها ظلت على هدوئها وعاودتْ - كما خمنتُ - النظر عبر النافذة . فكرتُ فيما لو استحالت الصفرة الشاسعة إلى مروج خضراء وانتعش الهواء وترطب . أحسست برأسى وقد انزلق إلى صدرها . لدن . رطب . ومريح . فى البداية شعرت بألفة أنفاسها إذ تتخلل فروة شعرى، وبذقنها إذ تمس صدغى ، وبعطرها إذ يغزو صدرى ويحتوينى. المروج ظهرت والهواء أصبح أكثر انعاشا، وجهها انحدر ونام فوق جانب من وجهى . أعرفُ نفسى إذ أُشخّر . هى أيضا تُشَخّر . اهتز الأتوبيس فإذا بنا فى المحطة الأخيرة . ياه .. المحطة الأخيرة .. ونهضنا ، كل منا إلى سبيله .

سألته عن موعد الطائرة ، فقال العاشرة .

مهـرولة اجتازت البـوابات والحقائب والصـفوف . إلى الشرفـة وزُمر المـودعـين انقـذفتْ . لكن المـراسم كـلهـا كـانت قـد انتـهت ، ومناديل المـودعين ارتدَّت لتـوها من الهـواء إلى العيـون . سـألتْ من تعرفـهم من أصحـابه . قالوا ودعنا وطار فتركـتهم واتكأتْ على سور الشـرفة . لانثناءة السيـرة فى جذعها ليـست مجرد انثناءة . نعم قبـضت بكفيها علـى عارضة السور الحديدى، واسلمتْ وجهها لالتـماعات الشمس على الجسم الهادر إذ ينساب لأعلى ، ولا نطواءات العجلات تحت البطن البيضاء ، ولحروف الكتابة إذ تصغر وتتلاشى . نعم فعلت كل هذا فى وقفتها ، وربما ماثلت أو ما ثلها أغلب المتشبثين والمـتشبثات بالسور، وربما زادت أو قلتْ درجة التركيز أو التظاهر به ، لكن اتكاءتها مختلفة . نعم مختلفة .. فهى لا تنظر ، بل تتأمل ، وثمة رعدات تعتريها ، رعدات خفـيفة متصلة ، لا تهز جذعها ، ولا ترعش فسـتانها .فـقط جلدها . ربما لاحظ البـعض ذبذبات الجلد فى المنطقـة المكشـوفة من ذراعـيـها ، وربمـا لم يلاحظ . لكن مـا هو واضح للجميع تلك العلامات الغامضة التى تطوف فوق وجهها. علامات لا تقدر على إيقافها ويصعب على من يراها تفـسيرها . مَدَّ أحدهم يده لكنها ظلت على اتكاءتها، وظل انبعاج بطنها ملامـسا لحديد السور ، كان بارداً ، وكان هذا يريحها .

خجل

هاهى ذى تقطع الرصيف جيئة وذهابا . بين الساعة والسيمافور تروح وتجئ . خطاها متئدة ، ثابتة . عيناها إلى البعيد تذهبان تنتشى إذ تسمع الصفير وجلبة العجلات . تُصلح من هندامها ، وتلقى بنظرة سريعة إلى المرآة . تفرش على وجهها ابتسامة عريضة وتزاحم الواقفين . لكنه لا يُطل من أى نافذة تمر عليها ، ولا ينزل من أى باب . تقف طويلاً ثم تُحنى رأسها وتفكر فى السبب الذى منعه من الحضور وإذ تخفت أصوات الآخرين والأخريات ، ويكاد المكان يخلو إلا منها ، تستدير وتبدأ فى التحرك مضطربة ، متهالكة ، وخجلى من شئ ما .

لمحتُها فى نهر الطريق . تمشى بين السيارات وعيناها نصف مغمضتين . من بين أكتاف المارة رأيـتها . شعاع خفى من ضوء شـدنى إلى وجهها ، بالفعـل ، عيناها نصف مـغمضـتين . زاحـمت المارقين مـن حولى لأراها بشكل أفضل . حقـيبتها معلقـة إلى كتفها ، وذراعاها لا يكادان يـتحركان ، والأضواء الصـفراء والحـمراء تنطبع فـوق التايير . نائمـة هى أم يقظة ؟ .. هاتان العينان تـخفيان مـا يجب أن أعرفه . تـشيان بنعـاس أفلت أو بنعاس قادم ، بغير النعاس لا تشيان .لكنها ليست نائمة . لا يمكن أن تكون نائمة . شـعـرها ثابت وأطراف التـايير لا تـخفق. السـارينات هدأت والعـجـلات توقـفت ريثـما تسـرى .. تسـرى، مـثلمـا يسرى الـمنومون، بيـن الأصفـر والأحمـر ، والإشارة هناك خضراء . خـفق قلبى فتركت الرصـيف ومرقت بين السيارات وناديتها . لكنها لم تسمـعنى . بالتأكيد لم تسمعنى . ليتنى لم انتظر كل هذا الوقت قبل أن أناديها ، رأيتها تصـعد إلى الرصيف المقابل . لكأنمـا أضواء الفلورسنت مـا انصبَّت إلا عليـها وحـدها ، فبـانت لى بين الزحام المنحـدر إلى نفق المتـرو بؤرة من البهاء المـشع ، إلا أن عينيهـا ما زالتا مغـمضتين . وثبتُ إلى الرصـيف وتحممتُ بأضواء الفلـورسنت غير أنهـا كانت قـد انحدرت مع المنـحدرين . سـابقت الأجسـام المُجَّـدة فى سيرها ، وانزلقت إلى النفق ، لكن البـاب كان قد غيبها . اجتـزته فتشاكلتْ علّ المسارب وضاعت منى. ضاعتْ تماماً .

ولد وبنت. أشرف وسعدية . فى بيتين متجاورين وُلدا.فى وقتين مختلفين لكنهما متقاربين . أشرف كفلقة القمر، وسعدية تبارك الخلاق .من نعومة أظفارهما وهما معاً . حبوا معاً . لعبا معاً . طاردا البط . قلدا قفزات الضفادع ، وهشا على الغنم . وحينما شبا اكتشفا أنهما عاشقان ولهان كل منهما بالآخر . اتفقا على الزواج إلا أن والديهما ، وقد فرقت بينهما الضغائن ، فصلا بينهما . أقسم كل منهما برأس أبيه ألا تتم هذه الزيجة .

واهاً لك يا أشرف . عينى عليك يا سعدية ، بثا هموم قلبيهما لعزيز وحميدة ففاحت رائحة الشواء الذى بداخلهما وتعبأت بها أنوف أهل القرية ، فى غرفتين ببيت كل منهما حُبسا. لأن البيت بجوار البيت فالجدار لصق الجدار . اكتشفا بعيون المحبين الرحيمة شقا. شق يا أشرف . شق يا سعدية .

عبر الشق تناجيا بأعذب أحاديث الهوى . لكنه شق نحيل ورفيع . لو أوسعاه لكشف أمرهما . ليت شفانا تلتقى يا سعدية . ليتها يا أشرف. وتنهمر قبلاتهما على الجدار . إذا دخل أحدهم على أى منهما خبأ الشق بجسمه . كحَّ أو تنحنح ليفهم الآخر فيكف ويحمى نفسه . وما زالا يقبلان الجدار حتى حال لونه وتأكل طلاؤه .

قال لهـا نهرب يا سـعدية ، فقـالت نعم .. نهرب يا أشـرف. نهرب إلى الكفر المـجاور ونتزوج هناك . قـال فى الكفر سيـأتوننا .. أبى وأبوك وكل ذى نبـوت . قالـت نذهب للمـركز . قـال فى المـركـز أيضاً سـيـأيتنا أبى وأبوك.. فلنذهب لمصـر الواسعة العريضـة . قالت نعم .. مصـر واسعة .. واسعة وعريضة .

فى مـصر الواسـعة العـريضة همـا الآن ، ويحدث أن يكونا ملتـصقـين فيـأتيها من أعلى السلم صـوت يصرخ أشرف يا زفت .. سـعدية بالثيـمة.. فيدلقان جلا بيبهما فوق جسميهما ويهرولان لتلبية نداء السلم العالى.

ســــــفر

قريرة العينين غادرتنا .

مكلومة الفؤاد عادت .

مهتاجة النفس ألقتْ بنفسها إلى النيل .

" طهرنى يا نيل " . " اغسلنى يا نيْل " . " طببنى يا نيل " .

غسل النيل ما علق بها من أدران السفر ، ولم يغسل أهداب جروحها .

" لماذا يا نيل ؟ "

وتكومتْ عند البر وراحت تأخذ من طين الأرض وتضع فوق رأسها .
تأخذ من طينها وتضع . تأخذ وتضع . تأخذ وتأخذ .

القــوارير إذ تهــجس بالامــتلاء



الوحيـدة فى البيت . جاء بهـا بعد الحـاح . بنت لها فم وعينان، شـعر ورقبة ، كـفان وقدمان ، رأسها جـميل وجسمها مـشوه، إلا أنه متناسق . لا صدر ، لا خصر ، ولا ردفـان . الكفان ملتصقان فى كتلة مـربعة ، والقدمان أيضاً . دونمـا ذراعين أو ساقـين جاء بها . مغـيظاً مكموداً اشتـراها ورماها على صدرها ، ففاجأته وأحبتها .

فوق السرير تضعها ،فى الفراغ بينها وبينه. أعدتْ لها أرجوجه صغيرة ، وبطانيـة صغيـرة ، ووسادة على قـدر رأسهـا الصغـير. لكنه يأتى مـغاضـباً ويأخذها . يذهب إلـى الأنترية ويقذفـها إلى زاوية الكنبـة ، أو يرميهـا فوق التليفزيون ، وغالباً ما يدفسها داخل نيش السفرة .

هو الآن فى الخارج . لا يأتى إلا ليأكل أو ينام .لا يريدها على السرير ، لا يريدها أمامـه . تعرف أنه الآن مع أصـحابه فى المقـهى أو فى الكازينو . تحسست الشعر الأصفر . لفّتْ خصلة منه حول إصـبعها. سوتها . لثمتها ، ولثمتْ الجـبهة الملسـاء والخدين . انقلبتْ اللثمـات إلى قبلات . قـبلات عربيـدة ، لها صـوت . ترق حتى لكأنهـا شقـشقة ، وتغـلظ لكأنها قـباع . هبطتْ إلى عنقهـا ، دغدغته بأنفهـا وذقنها . ضحكت وقهـقهت ، وانزلقت إلى القدمين الحـافيتين ، لثمتهـما. ستعمل (لكلوكا) تزمـه برباط من ستان ليدفئهما . لو كان لك ساقان وذراعان .. لو كان لك صدر وخصر لصنعتُ

لك أجمل (كلوت) وفصّلتُ لك أحسن فستان وغطيت ذراعيك بالغوايش ، وألبستك ساعة تعمل وتقول تك تك ، لو كانت أصابعك مكتملة ، لغزلتُ لك جوانتى تغيظين به البنات . لو كانت لك ساقان وذراعان .. فقط ساقان وذراعان لا شتريتُ لك عربة جميلة . فيها مرتبة ومخدة ولحاف وشخاليل، وعلقت فيها عصفوراً يناديك .. صو .. صو .. صو صو صو. أنت جميلة ومقطقطة . شعرك أصفر وعيناك زرقاوان ، أما فمك فخاتم سليمان . خاتم أحمر . مرسوم فى حجم النبقة . والحلق سيأخذ من كل أذن (حتة) . الله يعمر بيتك يا خالتى . خافتْ عليّ فأخذتك عندها . وخرمتْ أذنيك ، فألبستُك الحلق واقمت لك حفلاً ، رقصتْ فيه خالتى وطبَّلَتْ وزغردتْ . بخرتُك وهننتكِ وخزَّأتُ عين الحسود .

ما هذا الصوت ؟ .. هل عاد ؟ .. تغطى .. تغطى .. دارى وجهك وإلا أخذك ورماك هناك .. هذا (الجلنف) .. إنه مغتاظ .. يغار منك .. مع أنه هو الذى جاء بك . هو الذى شوهك . جاء بك على هيئته . ياه .. إنها بوسى .. لحستْ اللبن ولم تنم. بوسى أحسن منه . بُعده عن البيت غنيمة. تعالى يا بوسى .. لا عبى النونو .. هوووه .. نامى جنبها .. هوووه .. ننه هوووه . ومن فتحة القميص أخرجتْ ثديها . مسحته والصقتْ الحلمة بالفم المرسوم بالأحمر .

امـــــنية

(١)

من خلف الزجاج شخصا ببصريهما تجاه السماء وأسطح البيوت العالية . العرق يغطيهما وملاءة السرير تجمعهما .

حركتْ شفتيها وهَمّتْ أن تسأله : هل تحبني؟ .. لكنه بدا لها سؤالاً بلامعنى فسكتتْ . صَعّدَ زفرة : آه لو تلدين . وضعتْ يدها على فمه ولامته بعينيها .أزاح اليد وطمأنها : لا تخافى، أنا متمسك بك.قالت : تعال نذهب للدكاترة . هتف: لا .

(٢)

تعلم أنه داخ بين عياداتهم ، ورأته بعينيها يُخفى أوراق عجزة ، وعرفتْ من الصيدلى سر الأدوية منزوعة الأغلفة التى يخفيها فى أدراجه . لو واجهته بما تعرف فلربما ضربها ، ولربماطعن نفسه ،أو طلقها .

(٣)

قال : حياتنا تكمل بالولد . قالتْ : نعم .قال : هاتى لي ولدا . استعرضتْ فى ذهنها كل الفحول المحيطين بها وانتخبتْ أحدهم.قالتْ : وإن جاءت بنتاً ؟ ... ابتسم ابتسامة ملوية " خيروبركة" . فعادتْ تشخص ببصرها تجاه السماء والأسطح العالية ، بينما انقلب هو على أحد جنبيه مفكراً باسترابة : " من أين يا ترى ستأتى له بالبنت؟ " .. وعض على نواجذه ، ولم يطرف لأيهما جفن .

ارتجافة

أضاء الأباجورة فتثاءبتْ..فتحتْ عينيها وتثاءبتْ تمطتْ ففاجأها : " ربما جاءنا طفلٌ " . ارتجفتْ . ارتج السرير لارتجافتها وأز . باتجاهه مالتْ فانكشف عرى ظهرها وعجيزتها ، جلست مهدلة الثديين مرجوفة عيناها عليه .. على شفتيه اللتين نطقتا ثم انطبقتا على السيجارة المشتعلة لتوها . شعرها المهوش ملبد بالعرق والملاءة سقطتْ إلى مادون السرة .

تأملتْ شحوب وجهها فى المرآة المواجهة وأحستْ بانضغاطه العرق تحت إبطها . لفها الدخان الذى ينفثه وخنقها . دخان هو والسم سواء . امتدت أصابعه تعبث بظهرها فانتفضت . شعرت بأمعائها تتقلص. جيوش تدب فى عروقها وقذائف تدوى .

لم تكلمه . لم تعقب عليه . فقط لَمّت ارتجافتها واشتملت بالملاءة ونهضت . إلى السجادة انثنتْ . التقطتْ ملابسها وهرولت إلى الحمام . كفٌ على فمها والأخرى بما فيها من ملابس تضغط بها على بطنها . من وراء الباب انسرب صوتها إذ تتقيأ. صوتٌ هو مزيج من عواء ومواء. هدر صوت ماء ثم عم صمتٌ ، بعدها كاملة الهندام مكروشة النفس خرجتْ التقطت حقيبة يدها واتجهت إلى باب الشقة . لم توجه للجالس يدخن نظرة واحدة .. مجرد نظرة واحدة .. وهو أيضاً لم يهتم .

هكذا خلقـها الله . إن كنت مـاضيـاً فى طريقك فلن تراها مطلقـاً. لن تراها إلا إذا نظرت إلى الأسفل ، مثلماً تفـعل حينما تبحث عن شئ سقط ، أو لتطمـئن على أن رباط حـذائك لم يُفك. إن ركـعت مـثلمـا يحـدث فى الصلاة فإن الفارق بين رأسـها وجذعك المثنى سيكون كبـيراً ، وإن جثوت على ركبتيك واستقـمت بجزعك فلربما طالتْ رأسها ، إن كنت أنت على شئ من القصـر ، أدنى أضلاع صـدرك ، إن أردت أن تتأملها فـليس أمامك إلا أن تنبطح أرضاً ، ولـربما أفادك أن تتكئ على مـرفقيـك حتى تكون فى مواجهتها بالتمام .

وجه سـبحان الخـلاق . عينان رائقتـان ومسحـوبتان بما لو تمـتعت به واحـدة من الطويلات لسـبتْ قلوباً لا حصـرلهـا . أنف دقيق مـنمنم ، فيـه استواء واستـدارة يهتفان بقدرة الخالق ، وشـفتان ، آه من الشفتيـن ، نبقتان لهمـا لون الفروالة ونداوة حَبّ الرُمّان . أمـا الخدان فلا تعـرف إن كان من اللبن المـخلوط بماء الورد أم همـا ورقتـان من وردة المخـمل .. لا.. لا تصدقنى ..فالمخمل إن قورن بهما كان خشنا ومجّرحاً .

أما الصـدر ففيه بعـض من استدارة البرتقـال ،لكنه محشـور فى قفص يهبط إلى سـاقين قد تـتبينهـما بالفعل ،لكنك لن تـقدر على تميـيز أى شئ فيهما . عبثاً تبحث عن الفخـذين والركبتين والسمانتين ، ربما هجست بأن

فستانها ،الذى يضيق على دمية ، يخفى مالم تتبينه ، لكن ثق بأن شيئاً مما هجست به ليس حقيقياً.بالفعل لن تتبين شيئاً من هاتين الساقين.أنا طبيبها. بالأصح الطبيب الذى أتوا بها إليه . وضعوها على المكتب أمامى وقالوا أكشف.أهم ما فى ساقيها قدماها . كاملتان ، متناسقتان، وأظافرها جميلة ، جميلة جداً . حينما أدرتها وهذا ما ستلاحظه إذا ما أدرتها أنت أو أدرت بنفسك حولها رأيت الحدبة . مثلثة . هرمٌ متساوق البناء لكنه مقلوب إلى جنبه .

قالوا: اكشف يا دكتور، فكشفت. استسلمتْ تماماً لما أطلب أو أفعل، لحمها أبيض .. لونها رائق وأعضاؤها مكتملة .. حتى الشعر رأيته حيث يجب أن يكون ، لم يلفت انتباهى منها سوى عينيها ، على اتساعهما فتحتهما ، وباتساعهما ظلت ترقبنى . المسألة وضحت تماماً لى . نظرت حوالى علّي أرى من يناظرها فى الحجم فلم أجد ، ولما لم يكن هذا شرطاً فقد قلتُ ببساطة: مبروك .. حامل . عندها .. وعندها فقط تلاطمت عيون من جاءوا بها . نظروا إلى وإليها وإلى بعضهم البعض ، فيما ظلت هى ترقبنى بعينيها المفتوحتين على اتساعهما .

بيديهـا الناحلتيـن أحاطتْ تكور بطنهـا . أغلقتْ عينيـها فتـدلتْ ظلال رموشهـا سهاماً مـهشمة فـوق شحوب خديهـا . لعله القلق ينهش داخلها، وإلا ما سر هذه الرجـفات التى تعترى ذقنها ؟ .. وما سـبب هذه التقلصات أسفل عينيها ؟ .. هاهى ذى تفتح عينيهـا على اتساعهما فيندلق الفزع على وجهـها ، ينحرف بفـمها فـيعوج ويسيـل منه اللعاب على بياض القـميص المربوط من الظهر .

" آه " .. أفلتتْ منها ضعيفة مرجـوفة . على الحائط انبعج ظلها المشوه واستطال وجـهها وتعرج ضـغطتْ الزر وعضتْ كفيـها والحاشيـة وحديد المـسندين انضغـطتْ بطنها فـصـرختْ. بأعلى ما فـيـها صـرختْ. انهبـد السـقف فوقـهـا أو صعـد السـرير إليه . لا تمـلك إلا أن تصرخ .. تصـرخ وتعض . طار قطن كثيف من الوسادة وابتل فخذاها . سال ماء على ساقيها وهبط إلى الملاءة. عوتْ فـدخلتْ الممرضة ومن خلفها الطبـيب .. أخيراً الممـرضة .. أخيرا الطبـيب . نقلاها إلى الترولـى . خرجا بها إلى المـمر ومنه إلى غرفة العمليات .

بعدما وضـعا ساقيهـا كل واحدة منهما على الحـامل ، وقبل أن يبدأ المتـزاحمون تحت المصـباح أعمالهم ، وإذ تُقَلِبُ عـينيها المروعـتين بين قفـازاتهم وأقنعتـهم ، انشق صدرها عن صـرخة ممـدودة ومن بين الأكف التى أمسكتْ بكتفيها تثبتهما زأرت :" أمى .. هاتوا لى أمى " . وكانتْ تعلم جيداً أن أمها قد غادرتْ الدنيا وهى تلدها .

لكل مخلوقات الله أفئدة

١- بلبل

٢- قطة

٣- عنزة

٤- خنفساء

٥- سرطنة

٦- لماذا ؟

٧- أم عبده



بـلبــــــل

نعم هو البلبل يغرد .

أى شـجو حـزين لفهـا به هذا المـخلوق المنفـرد بذاته فوق غـصن أو داخل عش لا يُرى ؟ .. لكأنه عرف أنها ما جاءت إلى خضرة هذا الفنن إلا طلباً للسلوى . هاهى ذى نغماته تتكرر وتتبدل مثلما يفعل العازفون اختباراً لآلاتهم .

ناى هذا أم قيثارة أثيرية ؟

لكأنك حططت داخل صـرها أيهـا البلبل وسحـبت خـيطاً من شغـاف قلبها وطرت به مهتزاً موصـولاً إلى حيث تقبع فى مكانك المجهول . ترفق بها ولا تدفق نغماتك بهذا القدر من القوة والاندفاع ، فالخيط يتأرجح وهى ترتجف .

كأنك أيها العـابث قد استغنيت عـما تلك واستبدلـت صفارة رعناء به، أتسخر منها لترجف قلبها، أم هى انفلاتات الريح إذ تعصف بصدرك حيث تقف ولا تبين ؟ .

أيها الصادح المغر .. لا تستعـرض مهاراتك فما هى إلا مخلوق واهن ونغـماتك الآن هى والهـمس سـواء . لكأنها اشـتـعال الأنين فى صـدرها المتـوجع ، لكأنها تحـمل صهـد الزفرات الملتـاعة ، ولكأنك تحـوم حول السهم الذى أصماها عشقاً .

رطب أيها البلبل التهاب همسك بشئ من المرح. كن نبيلاً وافعل ، فهى على ما تكابده من وقدة الجوى تشعر بالنشوة تسرى فى حناياها . امرح أو اسكتْ .

لا .. لا تسكتْ . لا تقطع الخيط الذى انتزعته وإلا أزدت قلبها إدماءً وألما .

كم هى شجية هذه النغمات التى تشفق عليها بها . حلوة ودافئة. من عميق صدرك تأتى . فيها أنَّات شاكية ربما ، فيها ابتهالات استرحام ربما ، لكن الأكيد أن فيها من الرنَّات ما تستريح هى إليه.رنَّات من ذلة أو خجل . فاصدح أيها البلبل ، فالعبير يتضوع فى الأرجاء ، والسماء تنحنى فوقك أيها الخفى وفوقها، والظلمة آخذة فى الانقشاع ، والنجوم تستحيل إلى لمعات من ندى . وهاهى وقد زالت عنها كربتها تأخذ فى البكاء .

من أين جاءت هذه القطة ؟ .. كيف دخلتْ وفرضتْ نفسها ، هكذا ، وسط كل هذه العتمة ؟ .. فراؤها الأبيض يشع ، وعيناها الخضراوان تضيئان .. أى فُرجة خفية انفتحت لها وسربتها إلى الحصن الذى أغلقته على أحزانها ووحدتها ؟.. أى رائحة جذبتها إلى حيث استكنتْ وتبلدتْ ؟

هزتْ القطة ذيلها ورنتْ باتجاهها . حبلٌ من ضوء رائق يشدها إلى البلورتين المدورتين فى وجهها. انحنت إليها والتقطتها ، أراحتها على ذراعيها ووسدتها خدها "أيتها الحلوة الناعمة " اتجهتْ بها إلى المطبخ ، الأوانى مبعثرة والفوضى تعم كل الأشياء .

أخرجتْ علبة تونةٍ . فتحتها ووقفتْ ترقبها . تابعت خُفيها الأماميين إذا يقبضان على العلبة . تقبضان عليها فى حنو ورقة . أحضرت طبقاً وفتحت الصنبور . لا .. اللبن أفضل . أتتْ به من الثلاجة سكبته فشربتْ ولحستْ شواربها ثم تمطتْ .

خرجتْ إلى الأنترية فتبعتها . أجلستها على الأريكة وراحت تملى النظر منها . " كم هى وديعة وجميلة يا ربى ". دفنتْ أصابعها فى نعومة الفرو ثم عادتْ وسوته . لثمتْ رأسها وتركتها تتعلق بصدرها .. صدرها الذى عجف .. ومن تلقاء نفسها .. دونما ضغط أو ضجيج .. من غير أن تتصل بها أمها المتحسرة دوما ، أو تمديدها إلى خطابات الصديقة

المهاجرة التى تطالبها بترك ما هى فيه .. بهدوء .. وبلا إيعاز من أحد .. نهضتْ إلى الستائر .. أزاحتها وفتحتْ النوافذ فانسكب الضوء قوياً نفاذاً ، واندفق النسيم دافئاً رقراقا.

أمسكت الرشاشة وروتْ النباتات المائلة فى الأركان. مسحتْ أوراقها، ونفضتْ الأتربة من فوق المناضد ومساند الأرائك والفازات . صعدت إلى صور الذين غادروها . أزالتْ خيوط العنكبوت ونزعتْ أشرطة الحداد. مسحت المرايا والثريات. ما من شئ إلا مسته . مامن شئ إلا زحزحته ، استعرضت المكان فوجدته نظيفاً مريحاًومبهجاً .

وفى قلب الفوتيه استلقت القطة تستحم بالضوء وتلعق فراءها ، ترنو إليها أينما تحركتْ . وأينما تحركتْ نظرت إليها. قد تتنهد وقد لا تتنهد، لكنها فى كل مرة تبسط ملامحها وتتبسم ابتسامتها لطفل غريرٍ غافل. قبل أن تجلس مسحتْ المسجل ودستْ فيه شريطاً فسرى فى هواء الغرفة صوت عبد الحليم . حلو ورخيم ، بمشطها سوتْ ما نفر من الفراء هدهدتها ورددتْ ورا عبد الحليم ما يقول . نظرتْ إلى وجهها فى المرآة فرأت خديها قد توردا . ابتسمت لنفسها هذه المرة واتجهت إلى الحمام . تبعتها القطة فواربت الباب علها تدخل، لكنها مطت جسمها ورقدت أمامه، خرجتْ إلى غرفة نومها فسبقتها القطة . فتحتْ الدولاب وارتدتْ أحلى ملابسها ، تقلدت أفضل عقد لديها وتعطرتْ . كحلتْ عينيها ومسحتْ على شفتيها ببعض الأحمر . استعرضت نفسها أمام عينى القطة ثم حملتها وخرجت بها إلى الشارع ، وما يزال صوت عبد الحليم يتردد داخل المنزل .

من الصحراء جـاءت . إلى الصحراء تمضى . بطول الأسـفلت تسوق أغنامها . تجوس بها فى الحارات والأزقة . معـها أختها الصغيرة والكلب. تعـرف أقـصر الـطرق للخـروج من غابة الأسـفلت والأسـمنت والعـيـون الجائعة.فى يدها غصن شجرة .غصن جاف كغصنها.لا تضرب به أيا منها. لا تمس ذيلاً أو ظهراً ، لكن الحركة الواحدة من طرفها تعنى أمراً أو إشارة. تصيح بصوت مـدغوم يخرج من تحت برقعهـا فتلوى الأجساد المتبـخترة أعناقـهـا ، تسـتـدير أو تنثنى وتـهطع رؤوسـهـا بالاتجـاه الذى تريده هى. المـضرب هناك .. وراء خـرسانة هذا البنـدر بمسـافة .. بحـثتْ عن العنزة البيـضاء فلم تجـدها ، زجرتْ الكلـب ولوحتْ له بطرف العصـا فاسـتدار صرختْ فـى أختهـا ولحقتْ بالكلب ، إلـى الحارات والأزقة انطلـقا . هو يتشمم وهى تبـحث فى البعر والأوراق مأكولة الأطراف العنزة البـيضاء من أنظف العنزات ، العنزة البيضاء من أملح العنزات . مـستكينة وهادئة . أميز ما فـيها عينـاها النجلاوان. تجالسـها وتنام فى حضنهـا . هاهو ذا الاسفلت يغريها ويختطفها ، لكنها ستنتزعها من هذا الأسفلت المصهور وتستعيدها، ليـست بهـا حـاجة لـسؤال المـارة ، فكل العـلامـات تدل على أنهـمـا فى طريقـهما إليـها. هى انحنـاءة أو انحناءتان ويعثـران عليهـا . رائحتـها تدل عليها.فى العطفة المـقبلة ستجدها . هذا أكيد ، هزة خلخـال واحدة وتأتيها

العنزة فرحة ومعتذرة . لكنها لم تأتْ. انثنتْ يتقدمها كلبها ثم توقفتْ ، توقف كلبها أيضا ، عثرا عليها . نعم عثرا عليها .. مستكنية كعهدها ، هادئة .. أمامها مباشرة تقف..فى الظل الذى يغطى نصف الخرابة المفتوحة على الأسفلت ، وفوقها جدى من البندر .. يلاقحها .

الخيمة أمام البحر ، والبحر ساكن . لا موج . لا صيد . لا نوارس . ما بين الخيمة والبحر يجلسان. كرسيان من مشمع وترابيزة من خشب وكتاب مقلوب. الرمل أمامهما أسود رطيب والماء أزرق باهت، وهناك .. حيث يلتقى خط الماء بخط السماء تتفلطح غبشات رصاصية .

دخلتْ الخيمة . ارتدتْ المايوه وخرجت إلى البحر. تأمل تأرجح ردفيها وهى تخوض فى الماء . ملولاً تابع انثناءات أصابعها إذ تشد أطراف المايوه على بدايات التكور . لما احتوتها الزرقة ، وأصبح شعرها مجرد نقطة. نهض ودخل الخيمة . لملم ما خلعته وأزاحه جانباً ثم أمسك بالتُرمْس وصبَّ الشاى الجاهز فى كوب وعاد إلى كرسيه .

جاءته وقالت : البحر جميل .. تعال أغطس معى .

اعتصم بالكوب فأزاحته . نزعتْ عنه التي شيرت وَفَكَّتْ حزام الشورت. مثلها أصبح مجرداً إلا من المايوه. استعرضتْ مفاتنه ثم سحبته إلى البحر.

غطست تحت الماء وتمدد هو فوقه .

سبحتْ من حوله ومن تحته. ناوشته بالماء ودغدغتْ باطنى قدميه ، فلم يفعل أكثر من الانقلاب على ظهره . جاورته فهالها اتساع السماء وعمقها.

قالتْ : يا لئيم .. أنت تنظر إلى السماء .

لكنه كان مغمض العينين .

وثبتْ فوقه وغسطتْ به فـانتشل نفسه وانبثق مفـزوعاً . غبَّ الهوا ونثر الما من فمه ومنخاره. مسرعا جَدَّفَ بذراعيه وساقيه باتجاه الشاطئ.

اقتحمتْ عليه الخيمة فوجدته قد تجرد من لباس البحر .

قالت : دمك ثقيل .

وخلعتْ هي أيضاً .

رمى إليهـا البشكيـر فالتـفتْ به ، ارتدى التي شيـرت ودس ساقـيه فى الشورت وناولها مشطاً ومرآة .

قالتْ : جوعانة.

أخرج من الحقيبة المعلقة إلى الـعامود أطباقاً وساندوتشات وعنقودى عنب .

قالتْ : سآكل بالخارج .

اخرج الأطباق طبقاً طبقاً ورصها فوق الترابيزة .

خرجت إليـه وقد ارتدتْ مـلابسها ومـشطت شعرهـا ووضعت بعض الكريمات ، رأته راكعاً على قدميه يتـأمل خنفساء تمشى فوق أحد الأحبال التى تشد الخيمة

قالتْ : تعال .. كُلْ .

لكنه مد إصبعاً داعب به الخنفساء .

وقفتْ قبالته وتأملت الخنفساء.سوداء ،صغيرة وتمشى ببطء.. ببطء قاتل ، مدتْ كفها وأطاحتْ بها فارتطمتْ بوجهه ثم سقطتْ على الرمل فسحقتها وجذبته إلى الترابيزة :

- قُمْ كُلْ

قام . لكنه لم يأكل . وإذ نهم هى بقضم أول ساندوتش لمحت الخنفساء تنهض من جديد. رأتها تصعد الوتد وتتسلق وتمشى عليه باتجاه الخيمة ، فيما كان هو يُحدِّق فى سمرة الرمل الرطيب وزرقة الماء وتفلطح الغبشات الرصاصية التى ظلت ساكنه ، هناك .. عن التقاء خط الماء بخط السماء.

هنا .. نعم كنا هنا . جالسين على الرمل .. هنا ..أمامنا البحر ... ماء وزرقة ويود .. وفوقنا الكورنيش .. ضجيج ومارة وسور. عيون الواقفين إلى السور تخزنا. ما من مكان نلجأ إليه منهم. تدارينا بهذه التلة، لكن عين الشرطى خايلتنا . جيوبنا خاوية والوجد يضنينا . هى حلالى وأنا حلالها ، وما من شئ متاح .

انتقلنا إلى ذلك الكشك المهدم . هناك . فإذابرجل يتغوط وسط صفوف متراصة من مخلفات سابقيه. كدنا نتقيأ فتحامينا بمشاعرنا وهرولنا إلى هنا .. تعالى .. إلي هنا .. هنا أقرب إلى البحر. جلسنا وأعطينا ظهرينا للكورنيش . تساندنا فتحلقنا رهط من اللاهشين ، أمطرونا بأغنياتهم البذيئة وطرقعات صنوجهم. لم ينصرفوا إلا بعدما أبعد كل منا كتفه عن الآخر.

نهضنا وتقدمنا نحو الشط ، مركبان . إحداهما مقلوبة ، توجهنا إلى الآخرى . هنا .. هنا .. كانت هنا . أسفل منها عرق عريض من خشب ، كتلة ضخمة من شبك ، ونفايات من خبوط منزوعة الفل والرصاص ، منينا نفسينا بخلوة لا تحاصرها العيون ، يكفى أن ينظر أحدنا إلى الآخر فيفهم ما يريد ، ارتكزنا بأكفنا على الحافة وصعدنا ، وإذ نثب إلى قاعها فاجأتنا الوجوه المصوبة إلينا ، وجوه تسلط علينا عيونا ذاهلة ، رجل وامرأة وأولاد صغار ما بين اليقظة والنوم ، تحوطهم أسمال وكيزان وبراد شاى . لكأنها أسرة كاملة . مد الرجل يده بكوز وبش. بش ومط وجهاً ضامراً فانكشفت

أسنان شوهاء متفرقة. قفزاً عدنا إلى السطح ومنه إلى الشط فى ظل المركب المقلوبة .

جلسنا ناحية الرمل الجاف هنا . نتماس قليلاً ثم نتحوط من الفضوليين فننفصل . نتشاغل بحفر أخاديد فيه فتذرو الريح طبقة ناعمة منه وترفعها سنتيمترات قليلة . تبدو كما لو أنها غمامة شديدة الانخفاض تُصيب الرؤية ولا تُخفيها . أسفل منها نلمح خنفسات صغيرة مبقعة بالأصفر ، وإلى جوارها تطير سرطانات إلى أخرام اكتشفنا أنها تحيط بنا. تترك نغبشات خفيفة لا تلبث الرمال أن تطمسها .

فى وقت واحد نظر كل منا إلى الآخر . تكفى نظرة واحدة ليفهم كل منا مراد الآخر ، نظرة واحدة ثم انكفأنا على وجهينا ، من فورها أصبحت أذرعنا قراصات ، واضيفتْ إلى أرجلنا أرجل أخرى إلى كل رجلين أربعة أرجل من كل جانب . تضاءلنا واكتسينا بعظم له لون الرمل . بعينين خرزيتين تفحص كل منا الآخر . غنى ، فقد كنتُ فرحاً. بالتأكيد هى الأخرى تشعر بماأشعر ، فها نحن قد تحولنا إلى سرطانين أملحين .

بسرعة جرينا إلى أحد الأخرام.تمنينا أن يكون خالياً لم يكن مجرد خرم ،لكنه يفضى إلى ممر ينحدر فى الأرض الرطبة ثم يصعد إلى خرم آخر. المدهش أنه كان بالفعل خالياً.تقاربنا وتلاصقنا وبدأت فى مبادلتها عواطفى،شعرت بنخسة فى ظهرى فتوقفت. نظرت ، فرأيت ماء يندلق وسيخاً يندفع صوبنا .مذعورين انفصلنا وهرولنا من خرم الهروب ورأيناهم.صبية يحملون دلاء ويرفعون أسياخاً تخترق أعداداً كثيرة من السراطين .

جرينا يملؤنا الرعب ، ولما كـانوا قد حالوا بيننا وبين البحر فـقد صعدنا إلى الكورنـيش من هنا ، هذا المنـحـدر صـعــدناه وهم خلفنا يـهـرولون ويلوحـون بأسيـاخهم . مـن حديد السـور انزلقنا ، هنا .. ومن هنا حـاولنا النزول وعبور الأسفلت، فزعقت عجلات العربات ونطرتنا إلى حيث كنا . لدهشتنا استرددنا هيئتينا وعدنا كما كنا .

سـألنا الأولاد عن سـرطانين أملحـين صعـدا لتـوهمـا . لم نُجب . كنا فزعين ، فجـالوا بأعينهم يبحثون عن أى أثر يدل على موتنا فـعصاً ، بعدها وقـفـوا على رأس بالوعـة المطر. قـالوا ربمـا نزلا إلى هذه البـالوعـة ، ثم انصرفوا وتركونا مـتسمرين فوقهـا . تبادلنا النظر وبدون أن نتكلم فهم كل منا ما يدور فى رأس الآخر .

شريط طويلٌ من القواقع والأصداف يفـصل بين الرمال وموج البحر . شريط مـتعـرج كالزجـزاج ، يتراكم فى تلالٍ تعلو فـتحـجب ما وراءها . وتنبسط فـتكشف ما أمـامها ، قـواقع حية لهـا زوائد تخرجـها وتديرها ثم تسحبها فتتقلقل بما فى داخلـها . مدورة ومفلطحة تتدحرج باتجاه الرمال السوداء المذهبـة بنترات جد دقيقة تلتـمع بضوء الشمس ، ولا تكاد - إن أردت- تُمسك بهـا، تتلقى المويجات الواهـنة فتدفن نفسـها ، بعضـها أو كلها، فى الرخاوة الندية ، وأخرى ميتة لتوها مـفتوحة المصاريع ، لحومها حمـراء مدمـمة ،لكأنـها عيـون فُقـئت أظلاف طيـور جوارح ، جافـة هى اللحوم البنية المـقّددة فى قيعان المـحارات الناشفة ، يختلط فيـها الأسود والأصفر وبياض الملح ، ملح البحر إذ يتـبخر ماؤه فَيُخَلِّف تلك الحواف البيضاء الهشة الفـواحة بروائح اليود والزفارة ، على طول الشريط الطويل يتداخل الـرهيف المتكسـر والسميك الصـلب، المدور والمفلـطح وماله شكل الظفر والقـرطاس..أية موقعة خـلقت هذا المشهد المـهيب ؟ .. أية مصادفة تلك التى داخلت وفصلت ورمت البعض منها فوق البعض ؟

ثمة أقدام مشتْ فوقها ،آثارها تدل عليها، هاهى آثار النعال والكعوب، يا إلهى ..هذا لسان ينبـثق بين نعل وكعب، قوقعـة غرسها الثـقل الذى مَرَّ ومضى.هاهى حَدْبَتُها تظهر، تتأرجح وتعلو،خوذة تحتها رأس حى.رأس هو الوحيد المتحرك وسط الركام المدفون تحت ضغطة آدمية واحدة.

لا ، ليست خوذة ، بل هى شئ آخر . شئ جهنمى ينبثق من بين طيات الأرض مقاوماً كل الأنواء ، وساخراً من غرورذلك الذى ظن أنه قتل ومشى ، لأتراجع ، من الأفضل أن أتراجع . الجهنميون لا يبدون مُبْتلين هكذا ، عديمى الحيلة هكذا . وإن كانت ، فيالها من جهنمية جميلة .. بريئة .. لا حول لهاولا قوة .

ثَلَمَةٌ .. ثَلَمَةٌ فى أحد الجانبين تُفسد جمالها . ليست ثلمة ، بل شرخٌ دارته الثنيات التى حَوَّرها مَدُّ البحر وجَزْرُه .. التيارات التحتية .. تلافيف الطحالب ، وحيل التخفى وهواجس الافتراس .. تترنح به وسط الهشيم المحيط. لكأنه هو الذى يحركها ويضنيها ، انحنى فألتقطها ، أضعها فوق راحتى . مهيهضة تظلع فى حركتها ، أُقَعِّرُ كفى حتى لا تسقط ، لا يمكن أن تكون جهنمية المنبت ، لا أرضى أن تُصبحى جهنمية الموئل . أيتها الرقيقة المجترحة تماسكى .

لسانها طريٌ . أبيض شاحب. تلحس به بشرة الكف. ماذا تفعلين ؟ .. أى تحتاجين ؟ .. إن أشفقتُ عليك فماذا عن كل الركام الذى ينتظمه هذا الشريط الطويل ؟

لكأنك تتألمين .. هذا مؤكد . لعلك عطشى أو خائفة . أى شئ يمكنه أن يهدئ من روعك ؟ .. لو ربَّتْ عليك فإن خوفك سيزداد ، لو قَبَّلْتك فلن تفيدك قبلاتى ، وإن خبأتك فى جيبى أو حتى فى صدرى فستختنقين.

البحر .. كيف فاتتنى ؟ .. جريتُ إلى حيث يتكسر الموج ضعيفاً واهنا. وضعتها أمامه . واحدة مثلك أخرجت إلهة عبدها أناس كثيرون ، ودارتْ بسببها حروب أفنتْ أناسا كثيرين ، فانتقضى وأخرجى ما تجودين

به . لا أريد آلهة أو لآلىء ، فالعبدة والكنّازون يأخذون بخناق الكون ، ويتهافتون على جمع مجّراته ، ينثرونها حول مذابحهم ، أو يضعونها داخل خزائنهم . أريدك كما أنت ، كما كنت ، كما ينبغى أن تكونى، فجودى علىّ بمسرة إبقائك حية ، وانتبهى ، فهاهى الأمواج الرخية تأتيك حانية شفوفة، هاهى ذى تنشر نفثات الحياة فى الأرجاء ، فهنيئا لك . اندفسى فى الرمل وأخرجى لسانك .

لكن الأمواج لطمتها فتدحرجت . علاها الرملُ الأسودُ والنترات ، أى مهانة يا قوقعتى تنالين ؟..من الشرخ رأيتُ جانباً من جوفها، أحمر وردى ، خسارة أن تموت وتتقدد ، إذن فأنا شغوف بها . هكذا بانت لى الحقيقة. هكذا حرت . ماذا أفعل ؟ .. ابتعدتُ بها عن رغرغات الموج وزبدة المعكر، فى التربة المبلولة حفرت حفرة صغيرة . ملهوفا عدتُ إلى البحر ، بكفى الفارغة اغترفت الماء وصببته فيما احتفرت، قَدْرٌ بسيط يعينها على التصرف،وضعتها فيها وانتظرت فرأيتها تتحرك وتغوص. فرحت وقلتُ ها أنذا قد فعلتُ شيئاً مفيداً .

تأملت حدبتها إذ تهبط، والرمل المؤتلق بالنترات إذ يعلوها وتنهدت ، فتحتُ ذراعى وصدرى للشمس وللريح ، وابتسمتُ للأفق الفسيح ، غير أن طائراً بحرياً انقض والتقطها وطار . نظرت إليها بين منقاره وزفرتُ : لماذا من بين قواقع الشريط الطويل لم يختر إلا هذه القوقعة .. يا ربى؟

لم يحدث تراشق بـالنيران أودك بالمدافع ، ولم تُحـلقّ الطائرات فوق المدينة . لم يحـدث شئ من هذا على الإطلاق . كل ما هنالك أن عســاكر وحدة المدفعية الصاروخيـة دخلوا إلى قلب الشارع بعدما كانوا يتمركزون عند طرفـه ، قـال قائدهم تحـركـوا فـتحـركـوا . لا ذنب لهم فى أى شئ ، بالطبع اهتـزت العمارات وحُـرث الأسفلت وتهـشمتْ حواف الأرصـفة، وهذه أمور عادية تشهدها المدينة كل يوم تقريباً.غير العادى أنهم لم يجدوا مكاناً يصلح لتمركزهم الجديد غير المربع الموجود به بيت أم عبده.

آه .. أم عبده التى حماها الله من كيد الأعادى وقلب قنابلهم فى السما وأعـادها لتفـجر طائراتهم لمَّـا كـادت تهبط فـوق بيتـها . بيـتهـا هذا الذى تمركـزوا حوله. أم عبـده التى أكلت " قلب ديب " ونطتّ فوق اليـهودى " أبو براشوت" وقضمتْ زوره . ما ذنب العساكر المساكين إذا كان القائد لا يعرف كرامات أم عبده ؟ .. لولا سلاطة لسانها لأطلق عليها الرجال الذين لم يهـاجروا من المـدينة لقب الشيـخة . لكن لسـانها الطويـل حرمهـا من اللقب وعطاياه .

خرجتْ إليهم فرأوها بصدرها المدفوع للأمـام وعجيزتها التى لا مثيل لها . من خروم قرطتها رأوا ثعابين شعرها إذ تطل ، وتحت أنفها رأوا شارباً فاستهولوا ما رأوه ، وأيقنوا أن خطأ تكتيكيا رهيباً أوقعهم فيه جهل القائد.

" كل المواسير والجنازير والكاوتشات دى حوالين بيتى .. !!"

لم تكتف بالبرطمة فأتبعتها بنظرة كتلك التى أحرقتْ بها الصاروخ القادم من " البر التانى " . تكوم العساكر واحتمى بعضهم بالبعض وهم الأشاوس أولو العزم . الأسلحة فى أيديهم والخوذات وأوراق الشجر وشباك التموية فوق رؤسهم . هذا كله صحيح ، لكن ماذا عساهم أن يفعلوا مع واحدة مثل أم عبده . أم عبده التى وقفت على الشط ذات مرة وعطست فأغرقت نقطة العدو الحصينة بالماء والرمل ، وما يزال الرواة يحكون كيف أن بولدوزرات الأعادى حاولتْ انقاذ المدفونين بداخلها دون جدوى .

بعد حركة خطافية اكتشفوا أنها تمسك بالمقشة.ليس هذا فقط، لكنها - ويا للمفاجأة - تقف أمامهم فى وضع الهجوم .

"الهجوم علينا يا أم عبده ؟!..إحنا رجالتك وعساكرك يا أم عبده".

مترددة أرجعت النفخة التى كانت تنوى إطلاقها باتجاههم. ما تسرب منها لم يُطير إلا شباك التموية وأوراق الشجر فقط ، بل أدار بطاريات الصورايخ - على ثقلها - حول محاورها ، لم تمهلهم فرشتهم بزخات من شتائمها .من العساكر من تمترس خلف العربات ومنهم من جفل . أما المساكين الذين وقفوا أمامها فقد ضربتهم ، ضربتهم بالفعل ، بعصا المقشة وقشها ، الخوذات رنّتْ والفولاذ قعقع ، ضربتهم وهى تزعق :

" ابعد يا ابن القحبة أنت وهو .. حاربوا بعيد عن بيتى " .

بطيئاً بطيئا فهم العساكرأنها لم تضربهم وتشتمهم بسبب الرصيف الذى تهشم ، ولا بسبب غطاء البالوعة الذى هرسته الجنازير، ولا حتى

باب البيت الذى انبعج ، لكنهـا تريدهم فقط أن يبتعدوا عن تلك المـساحة الفاصلة بين مجنزريتن تواجهان المكان الذى خرجت منه .

لمّـا فهـموا ابتـعدوا ، ويالهـا من مفـأجـاة ، ليتـهم منذ البداية فـهمـوا وابتعدوا، ذلك أنها رَمَتْ المـقشة من نفسها رمتْ المـقشة،ليس هذا فقط، لكنها أتت بمـا لا يمكن تصديقـه ، رَمَتْ صدرها إلى الإمام أكـثر وبركتْ على الأرض ، على الأسـفلت وضـعتْ كـفيـهـا وركبتـها فـتـدلى ثدياها وارتفعت عـجيزتها ، " بتـعملى إيه يا أم عبده " ؟ " . لكنهـا انشغلت عنهم بالنظر أسـفل الجنازير والعجـلات ، وبأخف صوت راحتْ تردد : " بيـتك بيـتك بيتك.. عـسل عسل عـسل " ، وإذا بسرب من الكتـاكيت الـصغـيرة يتدحرج كتلاً صفرا زغبـية من بين تعارج الكاوتش ولفّات الجنازير ويتجه إليها مصوصوا مهللاً .

فتيات المكاتب يُشعلن رما دالانهيار

١- زميلات ثلاث
٢- مايسة
٣- حسد
٤- فكرة
٥- الأتوبيس
٦- المديرة



الحاج حسنى رأسه صلعاء ، وعبد الحميد أفندى أشيب وأثرم ، أما الأستاذ زقزوق فإنه يملك عينين مثقلتين بالزجاج المقعر وتجارب السنين ، وفى المكتب شبان وشابات . الشبان مشغولون بتصفح الجرائد والتهام الساندوتشات ، والحديث عن فواجع الدنيا. والشابات أيضا .. وإن أزدن حكايات المنازل وأخبار الموضة ومسلسلات التليفزيون ونهش سيرة هذه أو تلك ، إلا سامية فإنها مشغولة بالكبار الثلاثة.

هذا ما أكده أصحاب النظرات الخبيثة ، فهى الوحيدة التى تحرص على استشارتهم فى كل كبيرة وصغيرة ، وهى الوحيدة أيضا التى تستغنى عن خدمات أم السيد وتأخذ الأوراق بنفسها وتأتيهم ، تعرضها عليهم حيث يجلسون فى الصدارة تحت صورة رئيس الدولة ونتيجة الحائط ولوحة التعليمات ، تبسطها على مكاتبهم وتتعمد اعطاءهم قلمها . دائما تتعمد مَدَّ قلمها لتتمكن من مس أصابعهم ، هذه الأصابع الحكيمة ، الآمرة ، القادرة على منح أذونات الانصراف المبكرومنح المكافآت والأجور الإضافية . أى والله، تمس أصابعهم. ببساطة.. هكذا .. هكذا ..حتى لكأنه أمر عادى .

وهم مستمرؤون اللعبة ، سعداء دون أن يظهر عليهم. لاملامحهم ولا حركاتهم ، خبراء .. محنكون ، فقط ، يتعمدون الإبطاء فى أخذ القلم ، ثم

يسرعون بالتوقيع ، وبعدها يتباطأون فى إعادته ، يتباطأون بالقدر الذى يتيح لهم دس أعينهم وتقليبها فى كنوز صدرها من خلال الزر المفتوح دوماً فى بلوزتهـا، كل منهم على حـدة ، كل منهم بـدوره ، دونما ظلـم أواجحـاف بحق الآخرين، حـتى عينى الأستاذ زقـزوق تعرفان كيف تروغـان وتندسان فى الداخل الخفى وتخرجان فى التوقيت المتاح لهما تماماً .

تهامست البنات ، ماذا يعـجبها فيهم ؟ الثلاثة دقة قـديمة صحيح أنهم يأكلون مـعهم الساندوتشـات ، ويقرأون مـثلهم الجرائد . لكنهم يـنكبون على أوراقـهم فى صـمت ، ويبتـسـمون للـقادمـين فى بلاهة ، ويحـيطون أنفـسهم بهـالة من الكبـرياء . يَدَّعون - بوقـارهم الزائد عن الحـد - أنهم يفهمون أشياء كثيرة، وأنهم يعرفون ما هو أكثر من بنود القوانين واللوائح ، غيـر أن من يراهم فى جلستهم التى لا تتـغير ليظن أن النـواميس التى تكبل الجـميع مـا خرجت إلا منهـم ، لكأنهم عناكب ثلاثة تُفـرز لعابهـا خيـوطاً تحتـويهم ، عناكب متفقـة ، متسقـة ، من نفس السلالة والعائلة ، فـالأستاذ زقزوق لا يمهر ولا يضع ختم النسر إلا إذا وَقَّعَ عـبد الحميد أفندى ، وعبد الحمـيد أفندى لا يُوقِّع إلا إذا سبقـه الحاج حسنى ، والحـاج حسنى رجل طيب ، لكنه حازم . جمع حزمه فى تكشيـرة لا تزايله حتى إذا جاءته سامية . ومع هذافهو حريص على أن يتمتع بما تتيحه له، وهما أيضا .

أفاقتْ سُـميـة إلى أهمية مـا تفعله سـاميـة ، ففتـحت زرين في البلوزة واسـتغنتْ هى الأخـرى عن خدمـات أم السيـد ، لاحظ أصحـاب العيـون الخبيثـة أنها أمهر من سامية فى دفع القلـم ، حتى أن تماس الأصابع يطول لكأنه لن ينتـهى ، صحـيح أن ملامـحهم صـلبة كـما هى تنضح بالحكمـة

كالمعتاد ، لكنها تبدو أيضا - وهذه هى مهارة العيون الخبيثة - أكثر ارتياحاً ورضا وهى تغوص فيما وراء العروتين .

سامية رأتْ ما تفعله سُمية . فى الطُرقة عَنّفتْها ، فأفهمتها غريمتها أنه ليس هناك أحداً أحسن من أحد. فى أول رد فعل ارتدت سامية أضيق وأقصر فساتينها ، فارتدتْ سُمية الميكروجيب الذى انتهت موضته منذ صيفين. جاءتْ سامية بتايير مفتوح تكشف البلوزة من تحته عن جزء كبير من صدرها ، ففاجأتهم سمية بفستان سواريه مُعلق إلى كتفيها بشريطين رفيعين من الساتان . شفت بلوزة سامية حتى أظهرت السوتيان ، فجاءت سمية ببلوزة ، غير شفافة صحيح ، لكن ليس تحتها سوتيان .

قالتْ سامية لسُمية : ما تفعليته خطر عليك ، فردتْ سُمية : القحبة لما تبليك.. صفعتها فردتْ لها الصفعة. شدتْ سامية شعر سُمية، فأخرجت سمُية قلم الروج ولغمطت وجه سامية ، أمسكتْ سامية بزجاجة الحبر ودلقتها فى صدر سُمية ، هنا فقط تدخل الزملاء والزميلات ، قالوا لسمية : أكتبى مذكرة ، وقالوا لسامية اكتبى مذكرة ، لكن أيا منهما لم تكتب لم تجرؤ أن تكتب ، فأى شئ يمكن أن يُكتب ؟ .

وإذ يشغلهما ضجيج التصالح ، حملت سميرة أوراقها ونَحَّتْ أم السيد من طريقها ، ثم اتجهت إلى الثلاثة الجالسين بخبرتهم وحتكتهم ، أسفل صورة الرئيس ونتيجة الحائط ولوحة التعليمات ، ممسكة بالقلم ، وفاتحة لعدد غير معروف من أزرة بلوزتها .

مايسة بنت عفريتـة . تضحك وتقهقه كلما أرادت. حيثمـا استبدتْ بها الرغبة تضـحك وتقهقة . تصبغ شعـرها وقتما تشاء وكيفـا تشاء . مرة كل شهـر وأحيانا مـرة كل أسبوعـين ، وإن قامتْ فى رأسهـا فكل يوم. واحدة منهن أقسمتْ أنها رأتْ شعرها بلونين مختلفين فى يوم واحد .

منهـا عـرفن أن بيـن البنى والبـيج ألوان لا أول لهـا ولا آخـر . وأن الكسـتنائى ليس مجـرد لون وحيـد ، إنما هو عـائلة من الدرجات اللونـية المتجـانسة ، وعرفن أيضاً أن هناك الأشـقر الماهق والأشقـر المعتم ، وأن الأسـود لا تكون له تلك اللمـعة الأخـاذة إلا إذا أضيف إليـه بعض الأزرق والأخضر .

كـمـا عـرفن منهـا متى يكون " المـاشـيت " مطلوباً ، ومـتى يُكتـفى (بالآرت شـو) أو " البوسـتـيج " . ومتى تـكون " الباروكـة " هى الشرط الوحيد لإبراز فتنة المرأة واعتدن أن تشرح لهن كيفية عمل حمامات الزيت ومكان وضع البلسم من جـذور الشعر ، وموعـد الغسيل وكـيفية إمـساك " السيشوار " لتجفيفـه ، والتسريحة التى تليق بكل وجه من وجوههن ، ومتى تُفضل قـصة " الكاريه" ، وكيف يُثَبّت " البـوجودين" ، ولماذا تميل أحـيانا إلى قصة " الأسد " .

كُنَّ يضاحكنهـا ويقلن :" فاضيـة " ، وفى أعماقـهن كُنَّ يشفقن عليـها لطيبتها ، ويعتبن على العرسان الذين فقـدوا البصر والبصيرة . يتابعن تغيير المـانيكيـر فوق أظـافرها ويقلـن : " فنانة ". فالأحـمـر والذهبى والفـضى

والبرتقالى - حتى الأزرق والأخضر - يأخذ فوق أظافرها أشكالاً عجيبة ودقيقة ، ما بين مربعات ومثلثات ونقط وخطوط مستقيمة ومائلة . أشكال غريبة تتغير بتغير لون ونقشة البلوزة أو الجيبة.حتى الايشارب وتوكة الشعر، والحذاء، والشنطة والكرافات، لألوانها من أظافرها نصيب .

عندها من أصابع (الروج) وأقلام تحديد الشفاه و" الرميل " و" الماسكرا" وعلب " البنكيك" مالا حصر له .

" مايسة لا يُعلى عليها " .. هكذا كُنّ يسترعين انتباه زملائها . هؤلاء العميان الذين لا يهتمون بغير الكلمات المتقاطعة ، لا يذكرنها بغير الخير ، وإن ضحكن معها أو عليها فلتزجية الوقت فقط ، ضربتْ مكتبها ذات يوم وصاحت " سأصبغ شعرى بالبنفسجى " استهولن ما نطقت به، فهذا اللون لم يرينه إلا على شعور المانيكانات وبنات الكباريهات لكنها أكدت أنها قادرة على أن تفعلها ، أكثرمن هذا راهنتهن ، قلن : " ستخسرين .. لا أبوك ولا أخوتك سيسمحون "، إلا أنها، وبالجرأتها، فعلتها . ضحكتْ كثيراً واشترت بالرهان أصباغاً مختلفة وزعتها عليهن . كل حسب لون بشرتها وألوان الفساتين والبلوزات التى ترتديها .

يوماً جاءتهن ببرج فوق شعرها ، تعلوه دائرة بها دبوس . قهقهتْ وقالتْ : " دِش" فلطمنها بالملفات والسجلات ، ضاحكنها وجعلنها مادة لتندرهن ، وهى تشاركهن لطمة بلطمة ، ورمية برمية ، ونكتة بنكتة . غير أنها فاجأتهن يوماً بهيئة لم يعهدنها ،فلا شعر ولا صبغة ولا أبراج. نظرن إلى وجهها، ذلك الذى لم يعتد إلا الضحك، وقد أحاط به الحجاب، ونهضن إليها، إلا أنها ارتمت على مقعدها وانخرطت تبكى، وبدون أن تتكلم عرفن أنه قد جاءها عريس .

لم يَرْتَبْ أحـد في أمرها حـتى رأوا تورد وجـهها والتمـاعة الفـرح فى عينيـها . تهامـسوا وتساءلوا عـما عسـاه يكون قد حدث لزميلتهم الأرملة صـاحبـة الطفل المـشلول . قالتْ الزميـلات : " فى الأمر رجل " ، وقـال الزملاء:"سُمعة المكتب". نقلوا الأمر للمدير فأصدر تعليماته: "راقبوها " ، فراقبوها . رصدوا سكناتها وحركاتها داخل المكتب ، والطابق ، والمبنى ، إلا أنهم لم يقفـوا على شئ قال المدير : " انظروا ماذا تفـعل فى الخارج "، فتناوبوا الـمتابعـة. حتى السعـاة اشتـركوا معـهم. لاشئ . من المكتب إلى السوق ومنه إلى البيت . تهامستْ الزميـلات : " ربما كان أحد جيرانها " ، فتـحرى الزمـلاء عن السكان ، إلا أنهم لم يجدوا مـن يمكن أن تهفـوا إليه نفس.قيل :

" صـبى أو فتى يـأتيهـا من خـارج الحى " فقـبـعوا تحت الـشرفـة ، دخنوا السجائر واتخذوا سَمْتَ المخبرين وعادوا صفر الأيدى . قال المدير : " لم يعد بد .. اقتـحموا الشقـة ". فى زيارة غير مرتب لهـا طرق وفد منهم باب شقتهـا. فتحتْ لهم فرأوها ، متـهللة ، محلولة الشعر ، ومتوهـجة ، غير أن عيونهم الـخبيرة لاحظت أنها تبـدو محرجة . ليس لأنهـا حاولتْ أن تلملم شعرها كـيفما اتفق ، ولا لأنـها مالت إلى التحـفظ معهم ، فهـذه أمور جد عادية ، لكنها النظرات فى عينيهـا،وذلك الشعاع الذى لم تُفلح فى اخفائه . " إنها المـباغتـة " . هكذا قالتْ ". إذن فهـو هنا " . هكذا خمنوا ، بعـيونهم

جاسوا فيما وراء الأبواب، وبآذانهم أرهفوا لكل نأمة. فجأة أفزعتهم حركة من خلفهم، فالتفتوا بسرعة ،لئلا يهرب قبل أن يروه فتكذب وتدارى ، لكنه كان طفلها المشلول يمشى ويتحرك، فى نفس واحد هتفوا:"طاب ؟!". من فورها أخفته عنهم وعادتْ تواجههم مكبرة مهللة، فاردة أصابعها الخمس ، وعلى وجهها ارتسمت التكشيرة القديمة .

فكـــــــرة

انتهزت فـرصة خلو غرفة الأستـاذ من الزائرين وفاتحته فى أمر مـرتبها الذى لم تصرفه منذ عـملتْ معه . تعلوه صور الوجهاء الذين يـصافحونه . استـمع وسكت بـامكانه أن يتكلم .. أن يحـرك يـديه ويشـيـر .. أن يفـرد كرمشات جبينه .. لكنه لم يفعل .. فـقط أمسك بالسيجار ومر بإصبع فوق شاربه الرفـيع ، أفاضت فى الكلام . لا تملكُ أن تفـعل غيـر هذا ، سوسن ولميـاء لكل منهمـا مكافأة . الوحيـدة التى لا تصرف هى . لمـياء لم تكن تصرف ، من شهـرين حُلتً مشكلتها ، حلها هذا الجالس بسـيجاره تحت زحـام المصـافـحين ، انطق ، قـل شيـئاً ، لـكنه تشاغل بـحلقات الدخـان المصّاعدة بينهـما ، وهى واقـفة مـا تزال ، نبتٌ بلهاء تنتظر العـطية ، دس السيجار فى الزاوية المعتاة من فمه ،هاهو ذا يعود إلى عادته ، أسنانه بيضاء كمـا هى دائما. مُطبقـة على السيجـار تحز فيه " لن يـرد" لكنه حرك أسنانه ونطق .. أخيراً نطق :

" من منا أحق بأن يأخذ من الآخر أجراً ؟ "

غُصت ، قالتْ :

" لى معك عُمرٌ" .

رد:

" تتعلمين فيه وتتمرنين " .

احستْ بيـديها تتـثلجان ، ودَّتْ لو ثارتْ لو صـاحتْ، لو نزعتْ السيـجار ودسته في عينه. فكرتْ أن تهبط بالأيدي التي تصافحه فوق رأسه فتهشمها، لكنها لم تفعل ، بلعتْ ريقـها وسكتتْ . بنأمة من إصبعـه فهمتْ أنه يطلب منها الانصراف فشكرته . نعم شكرته ، أقَرَّتْ وجهة نظره وشكرته .. هكذا ببساطة ، ومتعثرة مضطربة غادرتْ الغرفة. غير أنها فكرتْ وهي تغلق الباب " في المـرة القادمة سـأفعل مـثلما فـعلتْ لميـاء . سأعري له سـاقي وأُدني وجهي من وجهه واتنهد " .

مَرَّالأتوبيس من أمامهـا فابتسمتْ له وتركته يمر. مَرَّ التـاكسى فأشارتْ إليـه . فى أول الشارع التـجارى نزلت . مـعهـا أول مرتب . مـعهـا فرحـة الانعتاق . ستترك للبيت النصف ولها النصف . كل ما ترغب فيه ستشتريه ، لن يوصـيهـا أبوها بالتريث .لن تفـرض عليهـا أمهـا مالا تريـد. أمام أول فـاترينة تمـهلت . قـرأت بطاقـات الأسعـار ثم تحـركتْ . عند الـفـاترينة المجاورة توقفتْ . استعرضت ما فى المقدمة وما فى العمق ثم انتقلتْ إلى الفاترينة التاليـة، فالتى تليها، والتى تليها. كل فتارين الـشارع مَرَّتْ عليها . وجههـا انطبع على زجاج كثيـر ، واندفس بين مانيكانات كثيـرة . انكماشة بسيطة ربطتْ بين حاجبيها ، وزمة غير مقصودة جمعتْ شفتيها، فيما ظلت يدها قابضـة بحزم على حقـيبة يدها . فى آخـر الشارع لاح الأتوبيس . من فورها خلعتْ حذاءها وهرولتْ إليه.

لم تكد الساعة تُنهى دقـاتها التسع حتى دخلتْ. جـاءتْ فى موعـدها الثابـت . وقفتْ للحظة عند بداية المـمر، ثم انطلقتْ بخـطى ثابتة مـحاطة بنثار التحـيات وهرولات الموظفات المسرعـات إلى مكاتبهن وأوراقهن . فُتح الباب ودخلتْ إلى مكتبها ،أصلحتْ من تاييرها واسـتمعت للداخلين والداخلات . تابعـت أرقام نيويورك وطوكـيو ولندن وباريس ، وتصـفحتْ قـوائم أسعـار الين والمـارك والدولار الأمـريكى . اسـتعـرضت عـدداً من الخرائـط والاحصائيـات ، وأصدرت أوامـرها بالبيع وبالشـراء ، ثم أملتْ عدداً من المكاتبات ومـهرت بضعة أوراق. لما انتـهتْ الحركة ، وهدأ كل شئ من حولها، ضغطتْ الجرس واستدعت الرجل الوحيد الذى يعمل فى المؤسـسة فجاء ووقف مـمتثلاً . وكـعادتها معـه دعته للاقتـراب وأضاءت اللمبة الحمراء وفتحتْ سترة التايير .

صائدات البروق بهن رهق من مذلة

١- القرمـــة	٤- مخالسة
٢- تنفـــيض	٥- افتراس
٣- غنـــاء	٦- فى زمرتهم

أمام المحل وقفتْ سعدية . فى مواجهة القرمة بالضبط. بيدها المنديل المعقود ، ومن حولها اللحوم المعلقة . الشاش يغطى أغلبها . شاش مُنَدًّى بالأحمر. القرمة أطول منها وأغلظ. أسفل منها نام الكلب الذى لا تخشاه ، وخلفها يقف المعلم خفاجة عملاقاً يمسك بالسكين والمسن تعرفه ويعرفها . تأتيه كل يومين أو ثلاثة ، بنفس المنديل المعقود ونفس المطلب . تناولت المرأة التى أمامها لفافتها فمدتْ سعدية يدها . مدتها بأقصى ما تستطيع . لأعلى فوق . جاوزتْ بها سطح القرمة . مدَّ يده فقالت : فخدة لستى ...

قبل أن يفك المنديل عادت ومدتْ يدها بأقصى ما تستطيع .لأعلى. فوق. جاوزتْ بها سطح القرمة ويد المعلم خفاجة ، بسط المعلم يده فسقطت إلى جوار ربطة المنديل عُملات معدنية صغيرة . عملات من نحاس والمونيوم . قبل أن يعاود النظر إليها ، بادرته :

- .. وعضمة لىّ .

تنفيـــض

أمام المرآة تقف . تتطلع لشعرها النافر من ثقوب المنديل، ولجلبابها إذ تتماوج زهراته بتماوج صدرها،أسفل منها السجاد والحشايا ، وفى يدها المنفضة . الغبار معجون بالعرق داخل ثنيات رقبتها ، وثمة قطرات تبرق فوق الجزء الظاهر من ثدييها . ترمى المضرب وتمسح على رقبتها وصدرها . تحس بالدفء يسرى فى كفيها فتعاود التطلع إلى المرآة ، تفرد ذراعيها وتنزع المنديل ، تهز شعرها فينتشر محتوياً وجهها وأذنيها ويمتد بطوله حتى منتصف ظهرها. تنثنى وتمسك بطرف الجلباب ، ترفعه وتلقى به فى الهواء . بحركتين تتخلص من الأصغرين . حرة خفيفة تقف . مبهورة الأنفاس ، موردة ، تتقافز فوق السجاد والحشايا. تتمرغ فى الألوان والنقوش الشيرازية . تحتضن الهواء وتنهض. تنثر قبلاتها على سطح المرآة ، تتأود وتنثر شعرها وترقص ، وحين يصطفق الباب الخارجى ، وتسمع السؤال الآمر .." خلصت تنفيض يا بنت؟" تضرب صدرها العارى بكفيها وتنحنى على أشيائها ، ثم تنزوى وراء الباب وتندس فيها قطعة فقطعة .

تركوها وخرجوا فهبط عليهـا الصمت بارداً وثقيلاً . كل شئ كانت قد قامت به ، إلا أوانى المطبـخ . الصابونة أمامـها واللوفة وسلك الألمـونيوم والحـوض المزدحم ، تـعليمـات الهـانم " المطبخ لازم يكون على سنجة عشرة " علقت المريلة فى رقبتها وشـمرت عن أكمامها ثم فتحت الصنبور وبدأت. أغـزتهـا قعـقـعـات الأكواب والأطبـاق بالغناء فـابتلعت ريـقهـا وتنحنحت . متحـشرجاً نحيلاً خرج صـوتها غمغمة ، فدندنـة، ثم استحال إلى أنغـام رائقة تبث الفـراغ من حولها مـا تحب وتهوى . طـربتْ فأزادت وانكفأت عـلى أوعيتـها تقـرعها وتغنى. من عـمق حجـابها الحـاجز تضخ الهواء وتدفـعه إلى أحبـالها الصوتية لـيخرج نغمـاً قوياً حيـاً ، يُرعش خيط الماء ، ويُطيِّـر فقاعـات الصابون . الرشاقة ارتـجت ،والملاعق صلصلتْ، تمادتْ فـاهتزت اللمبـة، ورنَّ كريستال النجـفة فى الأنترية، ومـالت صورة سيـدها البيـه . حتى الأزهار البـلاستـيكية فى الفـازات تمايلت وارتـعشت جأرتْ ففتح الجيران نوافذهم ، طرقوا عليها الباب، وهى سادرة فى غنائها، فـرحة بالفـقاعـات إذ تتطاير وتعلق بالقـيشـانى وزوايا الثلاجـة والدوليب .استـمروا فى الـطرق فلم تسمع. ذهب بعـضهم يسـتدعى البـوليس، وظل الآخرون يطرقون الباب، واستمرت هى تغنى وتغنى وتغنى.

تقبع ما تزال فوق الفراش المفرود فى ذلك الركن من المطبخ ، لحظات ويأتيها فى خفة النمر . يدفع الباب الموارب ويدخل . بنفسه قام بتشحيم المفصلات حتى لا تزيق .و بنفسه ثبّتَ اللمبة السهارى حتى يرى لحمها حين يلتصق به . ، سيغلق الباب حتى لا يأتيهما شخير زوجته . لن تقول له هذه المرة " لا .. لا يا سيدى ". ستبادره بأنها ابتلعت آخر أقراص الشريط فى المرة السابقة . سيقفز كقط ليعود كنمر ومعه قرص من شريط زوجته . عندئذ ستهمس له بأن أمها أخذت الذهب الذى اشتراه لها ، وأن الكلية تطلب مصاريف أخيها، وأنها تشتهى سوتيان الست هانم الجديد فإذا ما وعدها،وحتماً سيعدها ستتركه يفعل ما يشاء. وعندما تتملكه النشوة، وتأخذ منه كل مأخذ ، ستقلبه على الفراش وتعتليه ، وتزجره بخفوت " حا" .. " شى" . لحظتها سيضحك، لكن بدون صوت مسموع .

.. شد شعرها فضـحكتْ . قهقهتْ وضمته إلى صدرها ، عضـها فرمته على السـرير وارتمتْ فوقـه. قَـبَّلته قـبل أن ينفلت ، لكنه انفلت وتدحـرج وجـرى . لحقتْ به فـأمسـك بستـارة الباب ولفـهـا بها . تأرجـحتْ داخل القماش المطبوع . نمرة داخل فخ . اختطف مقلاة وطفق يضربها فلا تطول غير ركبـتها ، فى البداية ضحكتْ نفس الضـحكة المتبوعة بقـهقهة ، إلا أن الضـربات أوجعـتـها فـصـرختْ . صـرختْ وسقطت هى والـستـارة على الأرض . من رقدتهـا مَدَّتْ ذراعـاً وثقبـتها . بأصـابعهـا قبضتْ عـلى ياقة جلبـابه . حاول أن يجـرى فتمـزق الجلباب ، انـشق حتى الآخـر وتعرى . تخلصتْ من قمـاش الستارة وجرتْ خلفـه . رماها بفازة أصابـتْ رأسها . مَـدَّتْ إحدى سـاقـيهـا وأسقـطته على الأرض . عـارياً نهض ، ركلهـا فى وجهـها فأمسـكت بالكم جذبته فـارتطم رأسه ببطنها وارتمى ذراعـاه فوق فخديهـا قبضتْ على ظهره بذراعيـها.كلتا ذراعيـها والصقته أكـثر ببطنها . رائحة العرق فى انفه وزهور الفستـان تحت عينيه، وهى تضغط وتحاول أن تديره ليصـبح الصدر فوق الصدر والبطن فـوق البطن ، لكنه أنشب أظافره فيما طاله من ساقيها ، وجز بأسنانـه زهور الفستان وما تحتها. تأوهتْ فدفع ذقنها بقدميه وسـحب نفسه لتعلق قدم بفتحة الصـدر فتنشق زهور الفستان وينطلق نهداها نافران معربدان .جن جنونها فأمسكتْ بملاءة ورمتها فوقه . انبثق منها فـأقبلتْ عليه ،وفى الوضع الذى تريده جعلـته.دفع صدرها عنه ،

لكنها كانت قد طوقته وبنهديهـا هصرته . صرخ وأرجح ذراعيه وساقيه فى الهواء . حـاول أن ينفتل من أعلى ومن أسـفل ، لكنه لم يفلح . فلمـا همد واستكان لها وجردته من كل ما عليه فُتح الباب وصرختْ الأم :

- إخص عليك دادة !!

كل شئ كما ينبغى. شعرى ملفوف فى اتجـاه واحد، شفتاى قرمزتيان، طابع الحُسن فى مكانه ، والبارفان خلف شحمتى الأذنين وتحت الإبطين . لحظات والتـقى بهم . نظرات كالبرق سـتومض باتجـاهى . هاهم تعلوهم الثريات وتحيط بهم تماثيل العاج ، وأعمـدة المرمر . يتقدمنى الخادم إليهم فنتبادل الإيماءات والابتسامات الباردة. يفسحون لى فأدخل فى زمرتهم .

لا أقلُّ عن لابسات الخـواتم والأساور فـوق القفازات تألقـاً ونضارة . الماسات واللآلئ تستريح على النـحور وتتدلى من الآذان ، تُطل من تيجان الرؤوس وتتحـدانى . لن يمكنهم كشف زيف ما أتحلى به . يعـبث الرجال بيـيوناتهم ويـدفسـون أصابعـهم فى جـيوب صـديرياتهم ويدورن حـولى. اتخلى عن خوفـى وأنقل خطوى بينهم ، أدعى المرح فـأضحك باحتـشام. مـثلهن أظهـر الضـجر وأهش مـالا أراه بمـروحـتى . تصـرخ الموسـيقى فيتـخاصرون . أهزُّ إصبعـاً لرجل معتذرة وأشيـر بإيماءة لآخر أن لا بأس ، فإذا بى أدور وأروح وأغدو فى خطى متعرجة بين أذرع كثيرة تتبادلنى .

أجلس على واحــدة من الآرائك المـوشـاة بالذهب ، يـحيطون بى . متـألقـون وضّـاءون ، يـكثـرون من الضـحك والابتــسام. يمـر السـقـاة فيسـتوقفونهم، ويلتـقطون برشاقة ما يتـخيرونه. أناملهم وهم يقـضمون أو يرتشفـون . متأنقون ومتحفظون إلى أقصى حـد. لا أقيم لأى منهم وزنا ،

فـأنا انتظر الرجل الذى لا أعـرف اسـمـه أو شكله ، لكننـى هنا من أجله ، سأراه ويرانى ولن أفلته منى . هوهنا ، بالحتم سيكون هنا .

تتحرش بى إحداهن . وجهها شمعى ومروحتها فضية ." الهانم أول مرة تشرفنا". راؤها غين .لن أقل عنها. سأظهر لها أن الغين عند أفخم". أوربا.. وأمريكا" " آه.. أوربا؟ .. بارى ؟ ". تـتباهى بخنفـتها. لعلـها تمتـحن مدى ثباتى فى نطق الراء غيناً ." وى .. وى .. روما.. بارى .. مدريد .. برسلونة .. وبرلين "." الصـيف فـى الريفـيـيـرا يجنن " . " الريفـيـيـرا ؟ .. أووه .. الريفيـيرا .. الريفييرا ". كـوكبه من الرجال تحـيط بى ، تسبقهـم كؤوسهم وعُلب سـجائرهم . أهز مـروحـتى وانصرف عنهم فـيـقبلون علىَّ ، مـا أن ينهض المايسترو، ويعيد تحريك عصاه ، وتبدأ النغمات الوترية تترقرق فى الهول حـتى يبزغ كما البـدر ، من وراء الأجساد التى تنهض لتـوها يبزغ .. تُغشينى الهالة التى تحيط به. تغشى الآخرين أيضاً ، كأنى به كائن، نورانى . هو كما وصفوه لى بالتمـام . تكفينى من وصفهم الهالة ، تغرقنى الآن هذه الهالة . ينزاحون عن طريقه فأواجهـه . لا .. لن أفعل مثلهم ، فما جئت إلا لألقاه .

راعشـة أُثبّتُ عـينىَّ على وجهـه . كل هذا البهـاء قيـد خطوات منى ، والموسيـقى تتدفق من حولى قطرات من ضوء ومـويجات من ألق ؟ .. لو ضمنى.. لو تعطف وطوق خاصرتى . تمـتد يدٌ تطلب منى افساح الطريق ، لكنى أقف .. أعـاند وأقف ..فما تجشمتُ مـا تجشمتُ إلا لألـقاه . على شفتى ارسم الابتسامة التى طالمـا تدربتُ عليها .. أحاول فلا أستطيع .. لا أقدر .. أشعر بوجهى يلتـهب . كل ما يسربلنى زيف . كل ما أفعله باطل .

معه ينبغى ألا أكون سواى . لو أمر لنضوتُ عنى كل ما ليس لى .. ما استعرته وما قلدته .. ليرانى كما أنا . كما كنت وكما ينبغى أن أكون ..إن أشار أكسر الراء والغين، وألقى بالمروحة والحذاء، أمسحُ الماكياج وطابع الحسن ، وأخلع البروش والقلادة الزائفين .

هو ولا شئ سواه ما أبغى . كل ما فعلته وتدربتُ عليه لم يكن سوى حيل كى أروغ من بواباتهم لألقاه ، هو الذى لم أعرف اسمه أو شكله ، لم أعرف غيرهالته ، وهاهو ذا أمامى . قيد خطوات منى . والأوركسترا تغمرنا بفيوضات من النغم والبهجة .

أيهذا المتعالى فوق الجميع .. يا من يدور كل هؤلاء فى فلكه .. خذ بيدى واحتوينى .اجعلنى من حورياتك ، فلعلى أنعم ببعض من عطاياك.

كل الطنافس تذوب . كل الوجوه تتلاشى . البيبيونات والياقات المنشاة وفساتين السهرة لا وجود لها . لا سقاة ولا أرائك . لا ثريات الوجود كله أنا وأنت ، والهالة المنبعثة منك تدنو . لعلها تصل بينى وبينك . لعلك ترتضى أن أصبح مجرد نقطة تدور فى محيطك ، فاسمح لى بأن أفتح ذراعى وأدعوك لمخاصرتى ولو لمرة . لنرقص سوياً وسط كل هذا الألق . إن تعطفت علىّ فاعفنى من الانحناءة التى تفعلها هاتيك النسوة ، أخشى أن أدير عينّى فتضيع منى ولا أراك. اعذرنى ، فذاتى أشعر بها تتكسر وتذوب شعاعاً فى ومض الضوء الذى يشع منك ويحتوينى .

ها .. ها أنتذا تمد يديك . خذُ بيدى وراقصنى . لا .. هاك خاصرتى .. هاك أنا .. ضم .. ضم .. إه !! .. ماذا يعجبك فى البروش ؟ .. لا تنزع القلادة .. دع مروحتى .. أنت تهيننى . انظر إليهم . إنهم يضحكون .

توقف . أنت تغريهم بى ، ابتعدوا عنى . من يمد يده سأقضمها . من تريد أن تُصبح عوراء فلتقف أمامى .. لا تحيطوا بى هكذا. فستانى الغالى اتركوه . دعوا شعرى . آه .. ماكياجى .. أيها السفلة الأقذار . ماذا فعلتُ لكم ؟ .. اتركونى ولن أعود .. لكنهم يتكاثفون ويسدون المخارج .. كل المخارج .. وهاأنذا أستميتُ فى ابعادهم عنى .. وهو يقف هناك ، تحت الثريا ، يضم ثلة من الفتيات عاريات الأكتاف ويضحك مقهقهاً .

كريات من غيم فوق أثداء الغوانى

١- سعاد
٢- وجهها
٣- يقين
٤- دون جدوى
٥- زهرة
٦- ضمير
٧- الفتاة فى المنشفة الزرقاء
٨- برنسيسة
٩- مسكنة
١٠- عسل

كل ما فعلنه أنهن صمتن ريثما يمر . ومر. فوق مستطيلات البازلت مشى مستوحداً بنفسه ، وعينه على الأبواب التى يجلسن على عتباتها بعد أن تجاوزهن لم يسلم نفسه لاغناة الزقاق ، وإنما عرج إلى حيث تكومتْ براميل الزبالة ووقف خلفها . من مكانه مسح عتبات الأبواب المفتحة . أيها باب سعاد ؟ .. فكل العتبات متشابهة ، وهن قاعدات يتشمسن على الاعتاب بجلابيب مقورة تكشف منابت الأثداء الملعوب فيها بأفواه وأيدى الصغار والكبار ، ينبشن الأرز المفروش فى الأطباق المسطحة ، ويُزحن قشور الباذنجان والبطاطس إلى ما بعد أقدامهن .

الرجل المفلوج وصف له باب سعاد ، لكنه نسى ، بل لم تسمح له حماسته بالتقاط ما نطق به الرجل . هاهى الأبواب كلها تحت بصره . وهاهى أصواتهن ممتدة أمامه بحذاء الحبال المدلى منها الغسيل ، قمصان وجلابيب وأقمطة وبشاكير .أيهن سعاد؟.. أى عتمة تخفيها بداخلها؟.. حَذَّرَه المفلوج من سؤالهن ، ونبه عليه ألا يدخل من أى باب غير بابها ، لكن أين هو هذا الباب ؟

جميعهن ممتلئات مدكوكات ، فلعل سعاد أنحفهن ، لكن المفلوج لم يصفها له ، وما من واحدة فيهن انحف أو أبدن . هو لا يحب النحيفات أو مفرطات البدانة ، فكر إن نهضت إحداهن فجسمها فارع، فيه من اللدونة ما

يريح ومن الصلابة ما يخيف،وأنا أحبُ هذا الصنف . هجس : لعل المفلوج ضحك عليَّ . أخذ المعلوم وباع لى السراب ، وإلا فلماذا لم يأتْ معى ؟ .. غير أنه راجع نفسه . أنا الذى طلبتُ درء الشبهات . أنا الذى أراد أن يكون ما يكون فى وضح النهار ، ففى الليل يحدث غش كبير ، ثم ها أنذا فى المكان الذى وصفه بالضبط. لكن أى باب هو باب سعاد ؟ .. وأين هى سعاد فيهن ؟

أغلبهن خمريات ، لكن فيهن السوداء والبيضاء والمفلوج لم يصفها لى . أنا أسمر والبيضاوات أليق بى. منهن تخير من عساها أن تكون سعاد ، إنها تلك المرأة الخالية من الكلام ، مدورة الوجه ، ممتلئة العنق ، صاحبة الشفتين المكهربتين . نعم ، هما شفتان مكهربتان . صدرها ربوة وبطنها هضبة ، ووركاها يُخفيان بئراً لا قرار له ، لكن المفلوج لم يصفها لى ، والأبواب كلها معتمة .

ربما عاد المفلوج ليعطيها مع نصيبها فى المعلوم أوصافه. هذا يعنى أنها يجب أن ترانى ، فمن هى فيهن ؟ .. بعدما استعرضت مفاتنهن يجب أن اتيح لهن فرصة استعراضى . هذا تفكير منطقى . غادر براميل القمامة وفوق البازلت تدحرج ظله أمامه ، ممتداً طويلاً ، والشمس فى نهاية الزقاق مالتْ .

لحظنه . جميعهن لحظنه . توقفن عن مَدَّ حبال الكلام وكفتْ أيديهن عن نبش الأرز وأرجلهن عن إزاحة القشور ، نظرن إليه إذ يمشى بتؤدة يعرفن معناها. اتجه ناحية البيضاء التى اختارها، لكنه خشى ألا تكون هى ، فالمفلوج لم يصفها له. أعاد الكرة وما من واحدة نطقت أو أشارت، أو

فهـم منها أنهـا تعرفـه . لكن رؤوسهن - كل رؤوسـهن - اتجهت نـحوه ، وعيـونهن - كل عيونهن - تسـمرت عليـه . قرر : سأسـألهن وملعون أبو المفلوج .

أى شئ يفيد الآن ، فالشمس مالت ،وهو لا يفعلها إلا فى وضح النهار . فكم من بئر ملوث ، وكم من عانة تزحمها الحشرات .

وعاد إلى نقطة البدء . من أول الصف . المـفلوج أخذ المعلوم ، فإن لم يلتق بسعاد فهو إذن مغفل ، ومشى أمـامهن. رؤوسهن معه . عيونهن عليه . أنفاسهن باتجاهه . توسط قشور الباذنجان والبطاطس وواجههن . جميعهن مشرئبات متطلعـات ، ينتظران ما عساه أن ينطق به ، فكر فى أنسب سؤال ، لكنه عاد وتراجع . ماذا لو لم تكن فيهن سـعاد ..؟ ماذا لو كن يغرن منها .. لو كن غير ما تصور .. لو .. ثم إن المفلوج عـمل ما عليه وحذره ، زم فمه وقفل حنجرته على الهواء الذى كاد يمر منها ثم استدار . لكنه لم يقطع من البازلت سوى مستطيلين أو ثلاثة .عاد بعدها وواجههن ، ملأ صدره بالهواء ومرة واحدة نادى : سعاد . من فورهن وثبن من مجالسهن وجاوبنه بصوت واحد . نعم .

لا .. ليستْ عارية تماماً ، فالغلالة التى بلون بشرتها معلقة إلى كتفيها بحمالتين نحيلتين من الساتان ، ومُذيلة بكرانيش الدانتيلا التى لولاها ما مست نهايتى ردفيها . متوقداً وقفت خلفها ، ملصقا خدى بخدها ومالئاً كفيّ بثديها . ظهرها لصق صدرى ، وعطرها فى أنفى رقيق أخاذ ، متأرجحين غفونا فى وقفتنا المنتشية نتأمل أشياء - كما قلنا قبل غفوتنا - لا وجود لها إلا فى داخل كل منا . فجأة تخلصتْ منى فاضطرتنى إلى فتح عينى ، رأيتها تجتاز الباب وتمشى باتجاه الجرسونيرة . لم تقل لى لماذا فعلت هذا لكنها عادتْ ومعها شئ ، البوم. مددتْ ذراعى لأعاود ضمها، لكنها انزلقتْ وتربعتْ على الأرض . وضعتْ الألبوم فوق فخذيها فغاص طرفه بأسفل الكرانيش ، لكأنه قد مس المثلث المظلم أسفل بطنها .

حاملاً التهابى جلستُ إلى جوارها وطوقتها بذراع، فيما ظلتْ الأخرى خالية بلا عمل ، ضحكتْ وأشارت إلى إحدى الصور : الشلة .. زيزى ، ميمى ، مراد ، عطيات ، وأروى هانم .. أنا أجمل واحدة .. صح ؟ أمنتُ : صح . قلبتْ الصور : أنت لم ترنى فى باريس ولا روما .. المولان روج .. أى والله المولان روج ، فيتوريو .. ألا تعرفه ؟ .. فوتوريو جاسمان نفسه .. يقول لى أريفاديتشى . ما رأيك وأنا خارجه من البسين ؟ قبلتُ عنقها : مدهشة . هذه الصورة على سطح المركب .. وهذه فى فراندة الأوتيل ..

سوزى وكلبها ، وقهقهت : بعد الصورة قرم مناخيرها.. هل تعرف من تكون هذه الفتاة ؟ ... نظرتُ إلى الضفيرة والفيونكة ومريلة المدرسة وعرفت أنها هى . أنا .. هى أنا .. لا تقل أنك عرفتنى .. وهذه أيضا .. وهذه .

استمرتْ فى تقليب الصور ببطء فى البداية ، ثم بسرعة ، ولاحظتُ أنها لم تعد تتكلم ، وأن مرحها قد زايلها ، عند الصورة الأخيرة بكتْ . بل انفجرتْ بالبكاء لدرجة لم أعرف معها هل هذا الرذاذ الذى انتشر على فخذيها وصفحة الألبوم هو دموعها أم لعابها .

ربَّتُ عليها لكنها تخلصتْ منى ونهضتْ تاركة الألبوم على الأرض. وثبتُ إليها لألاطفها ، فى مواجهتها صورتها فى أحد المشاهد التى مثلتها . حاولت إدارة وجهها إلىَّ ، لكنها أشاحت به عنى وصرختْ : سيبنى، واستمرت تبكى، فعدتُ إلى الألبوم وتفحصتُ الصورة الأخيرة . كانت لطفلة رضيعة ، لها رأس خال تماماً من الشعر ، لكنه يحمل وجهاً بريئاً ، عرفتُ فيه وجهها .

يقين

أمرها مدهش هذه الفتاة . تضحك فتظنها لن تكف . ترقص فتتيقن من أنها لن تنتهى . تقول النكتة فتحلف عن قناعة أنه لا توجد فى الدنيا من هى أفجر منها . بنأمة أصغر إصبع يأتيها أكثر الرجال وقاراً . إن أدارت لسانها فى محيط شفتيها طَنَّ الشباب حولها كذكور المناحل . ومع هذا ، يحتفظ وجهها المدور بخيط محير ، نحيل رهيف ، لا يكاد يبين ، لكنه يحيط بالخدين الملساوين والجبهة العاجية ، ويشيع فى ملامحها طيوفاً من علامات الجد والحذر .

اقتربتُ منها فقالت : " دعنى .. دعنى وابتعد " . لكنى لم ابتعد. استعرضت وسامتى واخرجتُ تذكرتَى الطائرة . أكدتُ لها أن الفندق حجز لنا أفضل جناح . هناك .. عند المياه الخضراء الرائقة ، حيث كل شئ مباح، فى الخلاء وتحت أو فوق ملاءات الفراش ، لكنها قالت :"ابتعد " .

ابتعدتُ واستدارتْ ، فرأيت ظهرها إذ يهتز. هى تبكى .هكذا خمنتُ ، بل تيقنتُ ، عدتُ وربّتُ عليها فصرختْ فىّ : " قلتُ ابتعد .. غُرْ" . شوه الدمع ماكياجها ، فرأيت أنه من الأوفق بالفعل أن أتركها وابتعد .

خطوات ونادتنى : " يا أنت .. تعال " . جئتها فامسكتْ بيدى وفجّرتْ واحدة من ضحكاتها :" سمعت آخر نكتة ؟". خايلنى الأمل فعبثتُ بالتذكرتين فيما ارتفع طنين المقبلين علينا ،وبحركة كالنسيم وضعتنى بين ذكور المناحل ، وبدأت رقصة تيقنتُ أنها لن تنتهى .

تتلوى بين أسياخ الموسيقى المساقطة من أبواق الساكسفون والترومبيت . تتلاطم فترن ، تنقذف إلى السقف فترن ، ترتطم بالأرض فترن ، وسط الرنين تدور . من فوقه تقفز ، ومن تحته تروغ . عيون الشبان تتدافع إلى صدرها ، تلتصق ببطنها ، وتلتف بسمانتى ساقيها. تخزها وتلسعها فتتأود وتلف حول نفسها . أصابع الكهول تنقر على الترابيزات، متحرقة، عاجزة . طرقعات الصنوج تهز الشرايين والأوردة ، بعضهم يهز كرشه والبعض يفرد ذراعيه ويموجها ، وهى تتلوى وتقفز وتنثنى وتميد مثلما تميد الطيور . العجائز متناثرات فى الأركان ، فى الوسط ، فى كل مكان . لهن مناقير معقوفة ومخالب مقوسة. يسلطن عليها عيون بلا جفون. يهمهمن فى آذان الزوجات والبنات . يلوين شفاههن ويتباهين بجمال غادرهن ومضى . يتصبب العرق من كل مسامها ، ينسرب عبر الثنايا ، يمتزج بالأنوار الساخنة. فوق السرة ثمة اشتعال ، بين النهدين عواصف ورعود.المدير يقف على مقربة والبودى جارد يعقد ذراعيه خلف العازفين، وهناك ، فى الأسفل ، يتناثر الجرسونات يفتحون الزجاجات ، ويتلقون هبات التواقين إلي المجالسة . المهووسون يتجاوزون الرؤوس والترابيزات. يتنافسون فى الوصول إليها، ينثرون البنكنوت فوق رأسها. يدسون ما يفردونه داخل السوتيان. يصنعون منه عقوداً يطوقونها به . وهى جسد عربيد يصهل ويرعد تحت المصباح الدوار ، وعينان تحاولان الفرار إلى ما وراء السقف والجدران بغير ما جدوى .

تجلس على أحد المقاعد العالية مستندة إلى البار وأمامها كأس فارغة . صـدرها مكشـوف وذراعـاها محـوطان بأسـورتين قـريبـتين من الإبطين الملتهبين بعد نزع حديث للشعر . دارت فوق مقعدها وعلقتْ على شفتيها ابتسامـة العمل . التقى بصـرها ببصر الرجل الذى انشق عنه ستـار الباب ، نحيل ، أشـعث ، ويرتدى السواد ، وَزَنَـتْه ورفعتْ منديلـها إلى شفـتيـها . نفختْ فيـه وسلطت عليه عينين تدربتا علـى الدلال . شحب وجه الرجل ، فنزلتْ من فوق المقعد ورفعتْ يديها إلى الزهرة البيضاء التى تزين شعرها. سوتهـا وعبرت من أمـام الترابيزة التى جـلس إليها . نهض مـحييـا ثم عاد وجلس، انحنى إليـه الجرسون فـهمس له بشئ قـال الجرسون: " عـشرون جنيها بخـلاف المشروبات " . دستْ النقود فى حـقيبة يدها وتركـته يتأمل وجـههـا الذى قربتـه منه ، ويديهـا الملقيـتيـن إلى جوار الكأس المـترعـة والشمعة المنطفئة . بينها وبينه حقيبة اليد وعدد من القطع مختلفة الألوان ، هَمَّتْ بتحريك شفتيها ، لكنه بإشـارة أسكتها وبأصابع متعجلة أخرج ورقة وقلما . لم يلمس ذقنها بالإصبع الذى حركه ، فقط أداره فاستدارتْ بذقنها ووجهـها باتجاه الضـوء . حدستْ بأن التمـاعات وظلال تمتـزج الآن فوق وجهها وأن عينيه الهائمتـين الآن على وجهها تبحثان عن النقطة التى يمكن النفاذ منها. هاهو يرسمها الآن ، وهى مسـتكينة صامتة ، فقد أيقنتْ أن هذا الرجل قد سـبر غورهـا وعرف كل شئ عنها، وأنه بالقـطع سيرسـم وجـهاً معذباً بائساً ويدين مشققتين ..وقد كان ..

تركت كل شئ ، الكأس والترابيزة ، وعيون الرجال ، وهرولتْ إلى أختها .

لا بد أنها فى حالة سيئة، وإلا ما أرسلتْ إليها بعد كل هذا العمر ، بكل هذه الالحاح .

أمام المدخل توقفتْ . أى شئ ينتظرها ؟ .. أى فاجعة ؟

الشقوق زادتْ ، وقشور الطلاء لها وقع مقبض ، أعشاش الزنابير تُرقش الأركان، وشوارب الصراصير تزحف على الدر ابزين،فأى فاجعة!

جرى ولد لا تعرفه : " أهلاً يا تانت " وقادها إلى الشقة. بأى وجه ستدخل ؟

بلاطات الفسحة هى نفس البلاطات القديمة . الكليم تهرأ فى مكانه الأزلى . أصبح مجرد خيوط ووبر.. والغرفة .. آه الغرفة .. نفس اللون .. نفس الأساس . والترتيب .

تدافع الذكريات يؤلمها . الذكريات السعيدة والمقبضة. أنفاس الذين عاشوا فى هذا المكان تعود .

ياه !! عينان أم حفرتان فى لوح من خشب . لولا اللمعة لظنت أنها ميتة.

" أنا ميتة يا أختى .. ميتة " .

" سلامتك .. الشر برة وبعيد"

" طلبتك لأسلمك أمانة " .

" أى أمانة ؟"

" ابنى "

صكَّتْ صدرها ،، للصكة صوت الانفجار " لكنك تعرفين فى أى وسط أعيش " .

" أعرف .. وأنت وضميرك " .

انتهى الدفن فتفحصتْ الولد . ملَّتْ عيناها من عينيه ثم أخذته فى حضنها وبكتْ ، من يومها تعيش فى ذات البيت وترفض مقابلة زميلات وزملاء الصالة .

بالكاد التَـفَّتْ بمنشـقـها ، زرقـاء فى لون السـماء أو فـى لون البحـر . لازركشـات أو نقوش . لا سـحب أو أمواج . من النهـدين تنسـدل إلى ما فوق الركبتين ، عيناها لهما نفس الزرقة .

قوارب كثيرة سبحتْ فيهـما . أكاد أحس بخفق قلوب ملاحيها، وأكاد أرى رعـشة أكـفهم إذ تحـرك المـجاديف وخـوفـهم من أن تشق أطرافهـا الأزرق الساكن . لو أنى ركبتُ سفينتى ومخرتُ كالماخرين لتهتُ وانتهيتُ إلى لجة العدم ، لجـة أحسها ولا أرها . فلأبقى مـتفرداً أمام صفـاء السماء وانفسـاح البحار ، فـالضيـاء روح تغمرنى والألق نورٌ يتلـبسنى ، وهى وأنا جسدان متـقابلان . أتوق للتوحد بها ولا أدرى فى أى ملكوت تهـيم. أيتها السماء الصافية لفينى بالأزرق الرائق،أيهـذا البحر الهاجع لا تربد. فسماؤك بلا غيوم وأديمك بلا موج ، أمـا أعماقك فيقينى أنهـا تخفى مالا أقدر على سبر أغواره .. وحوش ربما ، وربما آلهـة تتصارع ، وغرقى لا حصر لهم .. فأى خبيئة تلك التى حولها يحومون ؟ .. وأى فراديس غُلِّقَتْ أبوابها دونهم ودونى ؟

التـقتْ أعيننا فـذهبتْ نفسى شـعاعـاً وتوزعتْ بين أعطافـها . خشـيتُ الاقتراب من عينيها فانزلقتُ عبر خـديها الأثيلين وتحممتُ بعطر شفتيها . داخلتنى شـواظ النار فـتـقافـزتُ وارتميت على طابع الحـسن فى ذقنهـا .

أطللتُ منه على الكتفين . عاريان فتوزعتُ عليهما ومنهما هبطتُ إلى النهدين. مضمومان . بهرنى خط منثن . مجرد خط منثن محصور بينهما ، فتجمعتُ واندفست فيه ، بل حاولتُ الاندفاس فيه . نعم حاولتُ، لكنى لم استطع، فأيقنت أنى محترق هذه الليلة لا محالة.

أيهذا الجسم الغائص فى الأزرق. أيتها الدفقة المتجهة إلى البراح، خذينى من ركنى المقرور ، شدينى إليك. ضمينى . ضعينى داخل منشفتك قربينى من حناياك أو اسمحى لى ، فقط اسمحى لى ، بأن أمس الكنوز المدفونة فى الأزرق ، تورد وجهها المُندى . هكذا بدا لى . هكذا أحسست . شمس فوق بحر . شمس تجاهد ليل شعرها. ملبد بالماء وملتصق بأذنيها وخديها . مرتم فوق ألق عنقها . شمس ترتكز على زنبقة وتطل على بحر ساج. وضعتْ كفاً فوق النهدين وضمتْ انفراجة المنشفة فوق الركبتين فتساقطت شهباً ونيازكاً.تقدمت خطوة وتراجعت خطوات. قلتُ : ستفعل شيئاً بالتأكيد ستفعل شيئاً ، لكنها لم تفعل أكثر من أنها زَمّتْ شفتيها فتدورتا وظهرت فى وهجها الشمسى غمازتان . دوامتان من ضوء ولهب ، تسايل عمرى وذاب فى الأزرق المنساب ، فيما خايلنى خفق صدرها. لعلها ستهبنى بعضاً من كنوزها . نعم ستهبنى بعضاً من كنوزها . لكنها استدارتْ باتجاه الباب المغلق . فتحته ثم اختفتْ تاركة لى البلاطات الزرقاء فى لون السماء أو فى لون البحر ، فضغطتُ على الريموت واعتمتُ كل شئ ورحتُ اشم رائحة احتراقى .

بـــــرنسيســـــة

نعم .. هى البرنسيسة ، العطوف الودود ، فـاتنة الحى التى لا يستبين لها شئ ، يعشقها الفتيان ويطوقونها بمشاعر الامتنان إذا ما وزعتْ عليهم نظرة .. مجـرد نظرة. يطاردونها بخطابات الـغرام وطلبات المـواعدة ، فـترفض بلطف وتـأبى فى شمم . هم أخـوتها وأبناء حـيهـا .. الأجدى أن يخـافوا عليها مثلما تخاف هى على أخواتهم ، يتـحدثون عن جمالها الفتان بلوعة . يستكثرون أن يظل مستعصيـاً عليهم . يتشاحنون فيما بينهم ، كل يحاول أن يسبق زميله إلى قلبها ، وهى كما هـى تتهادى فى أرجاء الحى. توزع فتنتها وطيبـتهـا على الجمـيع دون ارواء . لما أعـيتـهم السبل اسـتكانوا ، هدأت حـركـتهم ، وبدا أنـهم قد مَلّـوا المطادرة ، فـأسمـوها " حـجـرية القلب " وسكتوا. هى أيضاً سكتتْ .

من كـان يظن أن بوابة الحى سـوف تنفتح عن ذلك الـسمـهرى أكـحل العـينين الذى ما أن واجـهـها وثَبَّتَ عـيناه فى عـينيهـا حـتى ذابتْ بين يديه وقبلتْ المواعدة . وإذ تضـمهما تلك الغرفة ، ملتـصقى الأثداء والشفاة ، أضيئتْ الأنوار وظهـر فتيان الحى شامتـين صاخبين ، أعطوا السمـهرى ما اتفقوا عليه وأبعدوه ، ثم أقبلوا على لحمها العارى مفتحى الأزرار والأفواه .. حتى بهلول ، عبيط الحى ، زاحمهم ليأخذ منها نصيبه .

قالت الأولى :

- مسكينة .. ستقتل نفسها من البكاء .

ردتْ الثانية :

- مسكينة فعلاً ، فزوجها خُطف منها خطفاً .

- لكنه مات كما يموت الناس.

- لا يموت الناس عرايا فى بيوت البغايا .

- هذا أدعى لأن تتمالك .

- إنها صغيرة ولا تعلم أفاعيل الرجال .

- ليس سهلاً ما يفعله الرجال بنا .

- صدقت.. ليس سهلاً ما يفعله الرجال بنا .

وانصرفتْ الأولى إلى عشيقها ، فى حين اتجهتْ الثانية إلى التليفون وطلبتْ زوج جارتها .

جريئة . إن أشارتْ إليك فأنت مقتربٌ منها لا محالة . لها جسم ملفوف وكتفان ممـتلئان وعنق رائع . شفتاها نبقتان مخـضلتان بحمرة لا تعرف أى يد سحـرية رسمـتهـما. إذا ما خلعـتْ نظارتها الطبـية رأيت أجمل عـينين. ولربما استهـواك عسلهما الرائق فشمرت عن سـاعديك واغترفت منه. نعم ستـسمح لـك فى البداية أن تدنو وتقـترب ، لكن هيـهات أن تُمنى نفـسك بأكـثر مـمـا تسمح لك به . إن فـعلت فـأنت مطرود ومفـضـوح ومشـخن ، ويساعدها فى التنكيل بك رجـال كثيرون قنعوا بالنذر السـير الذى تعطيهم إياه .



اللائى يتوضأن فى زهوة الجحيم

١ - فتاة التريكو
٢- المرأة صاحبة الابتسامة
٣- تانت عزيزة
٤ - ميراث
٥- بهدوء
٦- تربية
٧- برش
٨- محاولة للفهم

الجو حار قبل الأوان . السماء زرقاء وصـفو إلا من بعض سحاب يشبه الغـمـام أو يكاد. حـشـائش الحـديقـة مـشـذبة والأزهار إمـا تتـراقص فى أحواضها وإما تتأرجح بين الأغصان .

ظهرت ترتدى بلوفراً وجوبة من التـريكو وبيدها مظلة . لكأنها بوغتتْ بالحر . نعم هناك بعض من نسيم، لكن الجو حار . البلوفر لونه بيج فاتح ، لكنه من الصوف . رقبـته طويلة والشرائط البنية التى تزركشه لـيست مجرد شـرائط . هى أربطة تزمه من الـعنق وعند الخصـر. المظلة مـفتـوحة. بهـا نقوش وزهور فى لون الكريمة . لحقيبتها ذات اللون ، إلى جنبها تتأرجح ، ومنها تُطل إبرتا تريكو وطرف قطعة لم يكتمل نسجها .

البلوفر صوفى ، هذا صحيح ،لكنه رقيق وفيـه رشاقة . فيه أيضاً ثقوب توحى ولا تظهر . كـم بدت لطيفة وهى تمـشى بلونها الرائق وسط زحـمة الألوان التى تلهبها الشمس . لا يمكن لهاتين الإبرتين ، أو لأى إبرتين ، أن تنسجا هذا الجمال المتناغم .

افقتُ إلى ما لو فاتـنى لندمتُ . فى مشيتها ما يشـجع.. يشجعنى أنا .. أنا بالذات . ذهبتْ نفسى شعاعاً . وددتْ لو وقفتُ قبالتها وركعت أمامها . فوق الحصي المنضود أو فوق النجـيل ، أو حتى داخل البركة الراكدة التي تبدو فى البعيد .أركع وأحيط ساقيها بذراعى . الثم أطراف جوبتها . أمسك

بساعديهـا وأريح رأسى فوق بطنها متـوسداً هذا الفن البديع الذى نسـجته أصابع أيا ما كانت ، فهى ماهرة .

كأنمـا عرفتْ ما يدور بخلدى . بعـينيها النجـلاوتين قالت : " لا .. لا تفعل " ، وأوسـعت الخطى . كأنهـا تقول : " أفـعل .. لكن ليس هنا " . لم أتمالك فتبعتها. حاذيتها حـتى كدتُ ألتصق بها . بل إن مرفقينا احتكا أكثر من مرة تلفتتْ حواليها كأنمـا تخشى أن يرانا أحد أو أن يقتفى آثارنا أحد . لاحظتُ مرتين، وربما أكثر ، أنها تهم بتحـريك شفتيها ، لكنهافي كل مرة تسكتُ . سألتها بصوت تعمـدت أن يكون خفيضاً : " فيم تفكرين ؟ ". لم تُجب فقط مـادتْ باتجاه الكوخ الملتف بالأغـصان فتـبعتُـها ، فتـحتْ لها الباب فزكمتنى رائحة غريبة ، ربما كانت رائحة الرطوبة وأسمدة الحديقة ، لكنها دخلتْ فدخلتْ ، رنتْ إلى من فوق كتفها وفكتْ ربطتين أو ثلاثا من ياقة البلوفر ، قلت :" أنت مطواعة .. لئيمة لكن مطواعة " .

لم ترد ، لكنهـا - ويا للمـفـاجـأة - زأرتْ . نعم زأرتْ لم يخـرج من حلقـها سوى هذا الزئـير، اقشـعر بدنى، لكنى خـمنتُ أنها تمـزح أو تضع بعضاً من توابل المحترفات ، مدَّتْ يدها إلى شنطتـها فخمنتُ أنها ستخرج مرآة أو مـشطا أو علبة بودرة ، لكـنها أخرجتْ إبرتـى التريكو وواجهـتنى . شرعت طرفيـها المدببين باتجـاهى ، سألتُ : " مزحة ثقـيلة هى ؟ ". لكنها دفعتْ بهمـا إلى عينى . حركة تلقائيـة أبعدتْ عينى فانغرسـتا فى صدغى. تأوهتُ " يا مجنونة " .

ورأيتهـا وسط ألمى ودمى تنزع البلرفر فـهجسـتُ " هى سادية" ." نعم سـادية ". وتمنيت أن تنـتهـى المسـألة عـلى خـير ، ثـدياها مكوران داخل

السـوتيان وشـعيـرات متـجاورة تحت إبطيـها . بحلمـتى أذنيهـا وبأطراف شعـرها الذى نفر وبرٌ صـوفى عالق ، الإغراء قـوى ، لكن دعاوى السـلامة أقوى . تلمست البـاب ، فإذا بالبلوفر يطوق عنقى ، أغلقت الباب بقدمـيها وسحبتنى إلى الداخل . لم أعرف، أقـاوم أم استسلم ، أضحك أم أعبس ؟ .. لكنها ضغطتْ بعنف حـاولتُ التملص فلم استطع . متحـشرجاً قلتُ :" كفـى " لكنها لم تكتـمل . جرتنى إلي سـاتر من قش فإذا بـأدوات وخرق ، بعينين جـاحظتين ولسان مدلى رأيت نمـلاً يمشى فوق قدم مـتورمة . " لم ألقهـا بعد للكلاب ؟" . بصقتـها وهى تجرنى إلى مـا وراء القش ، بكل ما اسـتطعت حـاولت فك البلوفـر ، وبكل قـواها راحتْ تضـغط . التصـقنا بالحائط وارتمينا فوق الأرض تمرغنا فـوق القش والتراب ومزق الثـياب. عـبثاً مـا أحـاول. إن نهضـتُ نهضت ، وإن سـقطتُ سـقطتْ . انغـرست الشرشرة فى فخذى فتلويتُ ، زحفتُ بـاتجاه الباب وهى فوقى تشد أكمام البلوفر . أجرها وارتجف . تُحكم الشد وأحاول التملص ، زئيرها لا ينقطع وأنينى مخلوط بالتراب والسماد والدم والباب بعيد .. بعيد .. بعيد .

ماذا جرى لهـا ؟ .. شحوب وجهـها لايخدع . أى ورطة أوقعت فـيها نفسها ؟ .. لولم تحبه .. هو يعرف ما ألم بها .نعم يعرف . ربما هجس فى البداية ، لكنه الآن متـيقن ، يشير إليها وتشـير إليه .. غير أن المـرأة صاحبة الابتسامة التى لا تعرف الشـر تلازمه كظله . دائماً تراها خلفه ، يظهران فى الشـرفة مـعاً ، لـكنها لا تجـاوره أو توازيه. أبداً لا تجـاوره أو توازيه . من النافذة تراها وهى تخلع عنه جاكـتته .. تعطيه الـبيجامة .. تقـدم له الأطباق وتشعل له السجائر ، تعطيه فرشاة الأسـنان ، وتغسل ماكينة الحلاقة. تفعل مـا تفعـل على مهل، لا تدقـق فى شئ أو فى أحد ، هـذا ما تلحظه عـليهـا حينما تُرتب أو تنظف أو حينما تفتح الباب لضـيوفه ، بعد أن تفتح تبتسم ، فقط تبتسم ثم تخفى وجهها بطرحتها وتنصرف فيما يشبه الجرى .

بالتأكيد لا تعرف بأمر الاشارات ، إن عرفتْ فلن تغار ، وإن اضطربتْ فى داخلهـا نيران الغـيرة فلن تسـمح لألسنتهـا بأن تطال مـا هو خارجـها ، أفهمـها هذا بإشاراته . أى قوة سحرية تلك التى تجعلها تحب هذا الرجل السمهرى الرشيق بشعيراته البيضاء وامرأته الوديعة ؟

بإشـارات يديه ونظرات عـينـيه دعـاها لـزيارته . باشـارات من يديهـا ونظرات من عـينيهـا سألتـه عما سـيكون من أمـر المرأة الطيـبة . مـحاذراً أعطاها موعداً تكون المرأة الطيبة فيه نائمة فى سابع نومه .

راقبتْ انطفاء النور فى غرفة النوم ، واطمأنت للهدوء وراء النوافذ وباب الشرفة . فما من ضوء سوى ضو نواسه الانتريه . أضاءها ليوحى بقدر من الثقة لها ، والأمان بالنسبة للمرأة الطيبة .

أحسنتْ من زينتها وتسللتْ إليه . أمام الباب فكرتْ فى الكيفية التى سيقابلها بها . لن تسمح له بالتمادى بل ستسمح له بالتمادى ، ستقول له غيِّر المكان لأنها لا تقبل أن تجرح احساس هذه المرأة النبيلة . نأمة أو أقل تلك التى لامست بها الشراعة ، لعلها لم تلمس الشراعة أصلاً ، لكن الباب انفتح ، انفتح بسلاسة وعلى مهل . جاهز هو . دخلتْ فانصفق الباب ، ورأته - يالفزعها - معلقاً ومطعونا فى عنقه وصدره وبطنه ، رأتْ أحشاءه مدلاه تنتفض وتنبض . هَمَّتْ بالفرار إلا أن السكين كانت أسرع فحزَّتْ عنقها،وإذ تنبثق خراطيم الدم انطبع على بؤبؤى العينين وجه المرأة الطيبة ، ولم يكن عليه اى أثر للابتسام .

ربما كانت خاطئة . ربما هرطقت بكلام مما يُحاسب عليه ، أو أطلقتْ سيلاً من النكات التى اشتـهرت باسمها ، وربما غلبـها هواها فالتقطتْ هذا الشئ أو ذاك باستئذان صـاحبه أو بدون استئذان ، ربمـا .. وربما أحاط بها كل هذا وسبقها حيثما حلت أو لم تحل . وربما أيضاً صح ما يقال من أنها مـسجلة خطرة ، وأنهـا ضـيف دائم على أقسـام الشـرطة وأروقة النيـابات وبوابات السجون ، وربما كان هذا صحيحاً ، وربما لم يكن كله صحيحاً . ربمـا .. لكن المـؤكد أن شـيئـاً من هذا لم يمنـعهـا من زيارتنا بين الحـين والآخر . تزورنـا وتأكل مما هو مـوجود . تتكلم كـثيـراً وتحكى حكايات مدهشة عن الرجال الذين ضربتهم ،وشـعرها الذى لا تعرف كيف تصففه ، والراديو الذى أخفته فى السوتيـان فانطلق منه عبد الحليم ، والأرنب الذى لعب تحت الفسـتان فأخذوها إلى المـستشفـى لتلده هناك. تحكى وتهرش فى أى مكان من جـسـمـهـا : شعـرها ، إبطهـا ، صدرها ، بطنهـا ، و... لا تتحرج من شئ . تقول أحيـاناً :" مادمنا نخلع هدومنا فلماذا نرتديها ؟" .. أبى دائما لا يكون موجوداً عندمـا تجئ. كذلك أخى . تقول أمى : " خذى حمّاما يا عزيزة "، فتدخل. من فورها تغنى وتزعق وتخرج مخلوقة أخرى . بطريقـة ما تـجيـدها، تتسلل أمى إلى الحـمام وتُلقى بالفـوطة فى الغـلاية والمشط فى الزبالـة ، ثم تأتيها بأى مـشروب ،وتقول " اشـربى يا عزيزة " ، فتـشرب ، وإذا حـان موعد قـدوم أبى تنظر أمى فى ساعـتها فـتنهض تانت

عزيزة . تأخذ ما تراه جـميلاً فى عينيها وتمضى . آخـر مرة أمى قالت لها :" هذه حـاجة الـبنت " ، وأشارتْ إلىّ ، سـألتنى ، وهى أول مـرة توجـه إلىّ كلامـاً : " صحيح؟" .. خـرجت من فمـها هامسـة على النقيض تمـاماً من طريقتها المـعتادة فى الكلام ، هززتُ رأسى :" صحيح يا تانت " ، فتـركتها وخـرجتْ . لحظات وسـمـعنا هدير مـوتوسـيكل أخى . هرولنا من فـورنا فرأيناها تنطلق به . كان من الممكن أن تصرخ أمى .أكثر من هذا ، لو مَدَّتْ يدها لأمسكت بالـموتوسيكل لكنهـا لـم تفعل ، لو تركـتنى لجريتُ وراءها وصرخت ، إلا أنها أمسكتنى فتسمرت إلى جانبها وشخصتُ ببصرى حتى اختفت . عـندما استدرنا للدخـول رجتنى أمى ، ككل مرة ، ألا أقول شـيئاً لأبى أو أخى ." لكنه مـوتوسـيكل وليد " . حـلفت لى أنها سـتـشتـرى من نقودها موتوسيكلاً آخر. لحظتها .. ولحظتها فقط .. بدأت أسأل نفسى عن السبب الـذى يدعو تانت عزيزة لزيـارتنا دائماً فى وقت غـياب أبى وأخى ، وكيف تعرف بأمر غيابهما ؟ .

ترحل بعـينيهـا إلى البعـيد اللامتـناهى . لا يهتـز لها هدب ولا تعـترى وجهها المشدود نأمة ،وهو نائم إلى جوارها يتماوج داخل جلبابه ويشخر ، وأسفل منهما يتراص أولادهما على الأرض ، الصبيان إلى اليسار والبنات إلى اليمين . ما تزال تتمتع بقدر من الملاحة ، والرجل فى نهاية الشارع معه فلوس. والرجل إلى جوارها يريد إخراج الولد الكبير من المدرسة ، وعمها فى البلد البعيـد ليس له من وريث سواها وأخواتها ، قـال الرجل الذى معه فلوس : سأعطيك فى كل مـرة عشرين جنيهـا ، والرجل الذى إلى جوارها أذاب عمره بين يديها وأيدى أولادها ، وعـمها لا يريد أن يموت . لو مات لأمكنهم سداد الإيجار وشراء ثلاجة والانفاق على تعليم الأولاد . تنكشف البنت الكبيرة ويعـرى فخذاها ، والوسطى تستديـر هاربة من ثقل الفخذين العاريين ، فيما يموء الولد الصغير فـى حلمه . تثوب إلى وعيها فتهز النائم إلى جوارها وتبادره :

- سى عبده ..قم نقتل عمى .

بهـــــــدوء

قبل أن تغادر دخلن عليها. مكرمشات الوجوه ، مهشمات الأسنان، فى ذقونهن شعر وتحت أنوافهن شعـر ، عرفتهن بالاسم ، أم عزت ، أم صابر ، أم ربيع ، أم هشـــام ، وأم الداوودى ، توجـستْ شـراً ، أرديتــهم السـوداء تعودت عليها عيونهن الكليلة هى التى تُخيف .اسـقطتْ الحقيبة والتصقت بالحائط .

" الداوودى كحيان " .

"الداوودى لن يعطينى شيئاً ".

"الداوودى أهطل ".

" أهطل وجلنف " .

"الزغبى بك سيعطينى المال بالزوفة ".

"فيلا وعربية وفساتين سواريه ".

" الزغبى بك سيصلح كل شئ ".

" كل شئ سيصلحه "

تحت وطأة نظراتهن سكتتْ . تقـدمن فالتصـقتْ أكثر بالحـائط، بهدوء أطبقن عليها ، وبطرحة إحـداهن خنقنها دون أن تجرؤ على الصراخ ، دون أن تجرؤ على المقاومة .

تربيـــــة

أحبته وأغدقتْ عليه حنانها . أعطتـه نقوداً ليذهب إلى السينما ، ونقوداً ليتـمشى مع أصدقـائه ، ونقوداً ليشـترى ما يشـتهيه . حـين مرض طببـته . صرفتْ عليه وعلمته ، ولمـا نجح كافأته ، لكن عندما علمت أنه يمشى مع تلك الفـتـاة، ضـربتـه وجردتـه من كل شئ ، أعـملتْ فـيه سـكين المطبخ وقطعت عضوه ، وعريانا مُجرحاً ألقتْ به إلى الشارع وأغلقت الباب .

نزعوا القيد ودفعوها إلى غرفة جانبية فدخلتْ مرفوعة الرأس متصالبة. أخذوا حاجياتها والتقطوا لها صوراً بعدما أمسكوها لوحة الرقم والتاريخ ، ثم أسلموها لتلك المرأة التى صعَّرتْ لها خـدها وقادتها إلى الحمَّام ، بعد أن انتهتْ رمتْ فى وجهها بالجلباب والطرحة وعبرتْ بها الحوش .

تداخلتْ فى مسمعيها أصوات الأبواب والمزاليج إذ تُفتح وتغلق بثغاء الواقفـات خلف الأبواب والنوافذ. فتـحتْ صدرها للهواء واجـتازت بوابة العنبر وصعدتْ السلالم الحديدية . توقـفتْ ماسحات البلاط وتبادلن النظر فيما مشتْ هى والمرأة التى تجاورها بخطاهما الثابتة .

أمام الـباب وقفـتا . ثـغاؤهن يأيتـها مـتقـاطعاً وغـير مـفهوم، والـمرأة تستعـجل الخلاص منها . بنفسهـا أخذت حلقة المفاتيح وفـتحتْ ، رأينها فـتوقـفن عـمـا كُنَّ يفعلن .ثـبتن أنظارهـن عليهـا ثم تصـايحن وتشـقلبن ضاحكات مـهللات،فردتْ ذراعـيها واحـتضنتـهن جميـعاً.زمتْ شـفتيـها وقبلتـهن جميعـاً،وبقدمهـا ركلت الباب فأزاحت المرأة،وصـارت وحدها معهن .

من فورهن أقـمن لها حـفلاً وأطلقن كل مـا يعرفن من نكات خـارجة. زغردن ورقصن لها وتقصعن وطرقـمن بأصابعهن . غنين لها ، ومن الشباك أذعن خبـر عودتها فـتدوم فى أرجاء الـعنابر ، وعرف حراس الأسـوار أنها عادتْ .

فى الصباح ، جلستْ على البُرش وبدأت تزاول نشاطها القديم وتفرض عليهن الأتاوات نظير حمايتها لهن ، فيما بدين مستسلمات طائعات.

كنتُ محتاجاً لأن أفهمها . لما قشرتُ وجـهها عرفتها. عرفتها لكنى لم أفـهمـها . هى المـرأة ذات الألف وجه . كـلما نزعتُ واحـداً ظهر آخـر . انهكنى النزع وأدهـشتنـى الغرابـة ،فأقـبلتْ علـىّ بوجه لا أعـرف رقـمـه ونهشتْ عنقى ، قالتْ :

- يا أهبل..متى سمعتَ عن إمرأة سمحتْ لرجل بأن يُقشر وجهها.

وعادتْ إلى رقبتى تنهشها .

بعد الرعد تهطل الأمطار



ما أن فـتحتْ أم مـحمد البـاب حتى رطم بالشـريط اللاصق شفـتيـها. صرختْ غير أن الصرخة ارتدت إلى جـوفها بعينين أذهلهما الرعب رأتْ يدى الرجل تنقذفـان وتُحكمان لصق الشريط.غُصَّتْ بـصوتها فيمـا التفَّتْ اليـدان بحبل حـول كتـفيـها وذراعـيهـا.شُلَّ تفكيرها لمـا بانتْ لها عـيناه. صـارمتـان،والقناع صـوفى ثخين.من ثناياه لفـحـتهـا أنفـاسه.لـها رائحـة النفتالين.أفاقت فـجثتْ وحَمَتْ رأسها بين ركبتيهـا،لكنه زمَّ شعرها وشده، تشبـثت بالأرض فشاطهـا وأنهضهـا لينه البول على ساقـيها وقـميصـها والسجادة .

خَطتْ بسـاقيـها الطليـقتـين فى الاتجاه المـعاكس، فَـرجَّهـا ولطمـها بالحائط، استـماتـتْ وزامتْ وأنّت . بكل ثقلها الصقـت صدرها بالزاوية ، لكنه أحكم قـبضتـه على الحبل وسحـبها إلى الداخـل . فتح الأبواب التى لاقتـه إلى أن وجد غرفة النـوم ، فرفعهـا وألقاها فوق السـرير، وشد سلك التليفون فقطعه.

صـرختْ وجأرتْ وهى تعلم أنـها إنمـا تصرخ لداخـلها. مـحمـد فى المدرسة وأبو مـحمد فى المصنع فأى عـار سوف يلحقه ويلحـقها . خلع الحـزام وهى جسـدٌ ملقى فى انتظار الافـتـراس . شـمت رائحـة صـينيـة البطاطس . إن لم تُـسحـب الآن من الفـرن احترقت . تـقلبت فى السـرير وأسقطت نفسها فانحنى عليها ببنـطلون لم يُفتح . لطمها ثم رفعها وهبدها على السرير .

ذراعاها إلى جنبيها مربوطتان ،والتليفون إلى جوارها بلانفع .

فكرتْ : باب البلكونة مفتوح ، وقدماى طليقتان . أربع خطوات فقط وأجتازه . سيلحقنى صحيح ، لكن الجيران سيروننا أو المارة ، ولربما ألقيتُ بنفسى .

رفعتْ جذعها وأدارته باتجاه البلكونة ، فترك أزرة البنطلون وكال لها الضرب حتى تورم وجهها ، " لم أربط رجليك لزوم ما تعرفين " . مَدَّ كفيه إلى قميصها فمزقه . بعدها اتجه ، متعثراً فى بنطلونه ، إلى باب البلكونة فأغلق الشيش والزجاج وعاد قفزاً . ولأنها كانت قد نهضت ، فقد أرقدها بلكمتين وأخرج ثدييها من تحت مزق القميص ولفات الحبل، ثم برك على الفراش وبدأ ينزع البنطلون وما تحته .

سيعرى أمامها كما عرَّاها . عريها يخزيها وعريه سيقتلها. " قدماى طليقتان ". هذا ما رَنَّ فى رأسها ، رفعتْ ساقيها فضحك : " تستعجلين .. هه ؟ ". غير أنها فى أقل من الومضة لفتهما حول عنقه وضغطتْ . زام ومد يديه لينزعهما، لكنها أحكمت شنكلة ساقيها وضغطتْ بشدة . قام فسحب جسمها كله ليتدلى بكامله فوق ظهره. فكرتْ:"لو جلس فجأة أو فك قدمى فسوف يقصم ظهرى ويكسر عنقى". بسرعة مَدَّتْ كفيها المقيدتين من وضعهما المقلوب إلى حافة بنطلونة المعلق بين ساقيه وشدته فاختل توازنه سقط وهى معه كادتْ ساقاها تنفكان ، لكنها شدَّتْ أكثر ، حاول النهوض فأسندتْ جسمها إلى رجل السرير وأعادته إلى الأرض. بقبضتيه ضغط على ساقيها ، لكنها زنقتْ رأسها فى رجل السرير وبكل ما تملك من قوة دكت رأسه فى الحائط .

قال : " آه "، ومد كفيه إلى رأسه ، فرطمتها مرة أخرى. أحسّتْ بقوة الفولاذ تسرى فى ساقيها . ارتخاءات أصابعه الهبتها ، فثنت جذعها وأخرجت رأسها من تحت السرير. جلستْ على الأرض ، ساقاها حول رقبته ما تزالان. صوتٌ يخرج من جوفه أم زومة .. لا تعرف .. لا تريد أن تعرف ارتكزت على كفيها المغلولتين ورفعتْ الساقين فارتفع رأسه هبطت بهما فهبطت رأسه ، رأت الدم إذ يبج أسفل شعره فأعادت الكرة والرأس مطاوعة .

انفكتْ القدمان فجأة . تعباً أو خطأ ، فوثبتْ وبكامل ثقلها هبطتْ فوق صدره . إذ سمعتْ طرقعات ، فيما امتدت يداه تتشبثان بالحبل الذى يقيد ذراعيها ، فثنتْ رأسها وضربتْ وجهه . أحست بالدم ينبثق خيطاً رفيعاً فوق أحد حاجبيها . من فورها هزتْ رأسها ودلت شعرها ثم انثنتْ فوق الوجه المدمم وبكل ما تملكه من غل دفست شعرها فى عينيه وراحتْ تحك جبهتها بوجهه وبأنفه وبعينيه .

خلَّص جسمه . رفعه وحاول أن يُسقطها ،لكنها وثبتْ مرة أخرى وارتمت بعجيزتها فوق صدره فهبط إلى الأرض . عدلتْ نفسها وغرزتْ

ركبتها فى بطنه وضغطت ، وثبتْ وضغطت .. وثبتْ وضغطت . أدخلت أحد قدميها فى الفجوة بين السروال المعلق بركبته وأعلى فخذيه وأخذت تضرب. تأوه وصرخ . مد أصابع كفيه الاثنتين إلى وجهها . طال فكها السفلى فشدهُ . ضربت فى نفس المكان ضربة أخيرة فانتفض ونطق" آآ .." وهمد.

منفوشة الشعر ، مُعَرَّقَة ، جلست . استندت إلى الفراش ، ثدياها محزوم أعلاهما بالحبال والحلمتان فى الهواء ترجفان . أمامها الجثة ومزق ثيابها ، فكرتْ فيما عساه أن يقوله محمد وأبو محمد حينما يعودان. ولأول مره انخرطت فى البكاء فيما أتتها رائحة احتراق البطاطس .

بوجه جامـد وقفت أمامه . وجـهه أيضا جامد . عـيونهما مـتقابلة . كل عين مسمرة فى الأخـرى ، فمها مزموم وفمه مفـتوح على آخرة ، لم يصدر من أيهـما صوت . لم تصـدر نأمه . حـينما اهتـز جذبتْ المـقبض فـخرج النصل وخيط ثخين من الدم . مـبهوراً تأمل البَجَّة إذ تنفرش بـالأحمر فوق قميصـه فيما اهتزت شفتـاها ورف عليهما طيف ابتسامـة . رفع بصره إليها وانقض على عنقهـا فلم تهتز . لم تطرف . لم تصرخ . فـقط رفعتْ النصل وهوت بها على كتفه فزأر . أطاح بساعديه وعوى . طالتْ أظافره رقائق من جلدها فسلخها ، بصقتْ عليه فلم يمسح البصقة، فقط أرغى وريمٌ انقذف من فمه . السكين فى يدها حمراء النصل مُشرعـة . غرزتها فى عنقه فشخر ودار حول نفسـه واستند إلى الحائط،فيـما اندفق الدم فوق المقـبض وغمر أصابعها، سحبته فبج الدم ، وانبـثق نافورة هائجة من الأحمر رشتْ وجهها والأثاث والحـوائط وأرجحت كـريستـال النجفـة فاصطك بـبعضـة ورن . ملتاثاً هجـم عنيها ، قـبض على عنقها فـدفعتـه عنها ، إلا أنه ارتمى عليـها وانهال على وجهها لطماً وهى ثابتة مكانها،مس خاتمه أحد عينيها فحرقها. من فورها دسَّتْ السكين خلف الترقوة وغرزت أصابعها المدماه فى عينيه . اقتلعتهما من محجريهـما فجأر وطاشت يداه في كل اتجاه .فُقئت إحداهما بين أصابعـها فـسالت ميـاهها لزجـة مغمـوسة فى الدم القانى والـمتخـثر، وتعلقت كـتلٌ من هلام بأظافرها وفوق أنفـه وأطراف شاربه. أعـادت غرز

أصابعها فى المحجرين الخاليين وأوسعت الفجوتين إلى أن اخلتهما إلا من خيوط الدم النازف . مجنونا مشوهاً عض الهواء وركله ، طالت ركلة بطنها فانتزعت السكين وطعنت فى الصدر، وفى الحوض ، وفيما بين الساقين ، وهو جذعٌ يترنح . يُقبل ويتراجع ، وبسكينها تضرب وتضرب وإذ يسقط تسقط فوقه . بالنصل تجز العنق . من الأذن إلي الأذن ، تقطع الأوردة والشرايين . تغرسها فى الحنجرة وتفصل الفقارات . ينتفض الجسد وسط الفوضى المحيطة فتضغط عليه ، تضغط وتزيح الرأس ، أطراف الأوردة تنتقض ، والدم ما يزال يندفق ، واللحم أسفل منها يعلو ويهبط. ارتمت على جنبها ، وبالسكين شقت البطن فارتعش الجلد واندفقت الأحشاء ثعابين تزحف حول نفسها . جثت على ركبتيها وشقت السروال فصلتْ الخصيتين وما فوقهما فارتفعت كتلة اللحم وهوت ما يزال الدم ينزف ، ومن فتحات العانة والبطن والرقبة تصدر أصوات . غرزت السكين فى مكان القلب فارتطمت بعظمة ولم تنفذ . سحبتها وبكل ما أوتيت من قوة طعنت فثبتت اللحم الذى همد بالسجادة وخشب الباركية. انتزعتها بصعوبة ، وإذ تهم بالطعن من جديد دقت الساعة فارتجت ، ارتجت ثم أفاقت . الصمتُ يحيط بكل شئ . كتلة اللحم ساكنة حمراء ، والذراعان مفرودتان على استطالتهما ، والأصابع مقوسة والرأس مطوحة مدلاة اللسان ، والخصيتان فى التصاقهما بالدم قنفذان ماتا فى بركة . انتصبتْ واقفة وشدت ثوبها المثقل بالدم والعرق. أزاحت خصلة التصقت بإحدى عينيها ثم رتبتْ أنفاسها واتجهت إلى الباب فتحته.على مصراعيه فاصطبغ المقبض بالأحمر، على بسطة السلم وقفت . وأمام أول عابر قالتْ :

خانني .

قف هنا وتابعـها وهى تطلع السلالم المـؤدية إلى المشـغل ، انظر كيف تقبض على حقيبة يدها ، هاهى قـد اختفتْ. لنصعد هذه الدرجات الخمس ونقف عـند هذه البـسطة .هاهى تـتـرك سـلم المــوزايكو وترتقى الـسلم الحديـدى. فلنصعد أيـضا درجتـين . هانحن فى موقـف يتيح لنا رؤيتـها . الحلزون يخفـيهـا فتعـال إلى شباك المنور . احـترس وإلا لمـحتنا . هاهى تضغط جرس الباب .انظر إلى وجهها ، هل ترى ؟ .. تضغط على نواجذها وتحرك أصابعـها على قفل الحقـيبة . إن لم يكن هذا هو التوتر بعـينه فماذا عـسـاه أن يكون ؟ . اخـفض رأسك فـإن البـاب يفتـح .. ياالله .. هذه هى غريمتها إذن . يالجمالها الأخاذ ، ظلل عينيك بكفيك حتى لا تغشيا مثلى .

انظر إلى بساطة ثيابها ووداعة نظراتها إذ تسـتطلع وجه الواقفة أمامها ، حديد الدرابزين يُخفى أموراً كثيرة. أنتبه ، الغَّمازة الرائعة التى تتوسط ذقنها تهتز وتضـيق ، وأصابع غريمتها تفـتح الحقيبة . ماذا عـساه أن يحدث ؟ .. لماذا لم تأتها من الباب الأمامى ؟ ..

هش . اسمع . الجميلة تهم بالكلام :

- إذن فأنت التى تعيشين معه .
- نعم .. وأنت التى فتنته .
- نعم ..لكنى مشغولة جداً الآن .
- لن أعطلك كثيراً .

هيا .. اترك النافذة وتعال نصعد. اقفز والحقنى." أخ" . أغلقتا الباب. ترى ماذا تقولان ؟ .. ماذا تفعلان ؟ .. أى شئ سيخرج من الحقيبة المفتوحة ؟ .. لو نفذنا من هذا الباب .. لو .. انصتْ . ثمة جلبة وراء الباب . هذه أصداء صياح . آه .. هذه طلقة رصاص ، قطعاً طلقة رصاص .. الحقيبة المفتوحة .. تذكر الحقيقة المفتوحة .. فلنخبط على الباب .. لا ينفع الخبط فلنقتحمه .. هُبْ .. هُبْ .. هيلا هوبْ .. ياألله .. تتحاضنان وتبكيان .. إنهما تتحاضنان وتبكيان . فتيات المشغل يُحطن بهما ، أياديهن على أفواههن وصدورهن . انظر إلى الحائط ، عينا رجلهما فقئتا ورقبته ذُبحتْ بزجاج الإطار المهشم .

هبط (جميل) إلى الحارة .مثل فلقة القمر رأته (وجيدة). يتمخطر فوق مربعات البازلت ، ويتجه إلى الركن الذى تقبع فيه (جميل) له شارب رفيع ومقاصيص تتأرجح فوق جبنيه. كأنه يبحث عنها هى ولا أحد سواها . كأنها تنتظره هو ولا أحد سواه. (وجيدة) فقيرة ، هذا صحيح ، لكن ملامحها مقبولة ، ولديها تحت فستانها أشياء تخفيها .

- أنا يتيم .

- وأنا أيضاً .

- ليس لى أصدقاء .

- ليس لى أحد .

مد (جميل) يده ومدت (وجيدة) يدها . بادرها .

- كل شئ هنا يخنقك ..

وهام فى عينيها :

- .. أنت هنا ميتة .

أشاحت (وجيدة) بوجهها حتى لا يرى (جميل) الدموع إذ تبلل خديها .

- تبكين ؟

- لا .. لا ..

(وجيدة) لم نعتد الإمساك بمناديل تصلح لكفكفة الدموع.لا نملك ما نشتـرى به منديلاً من ورق أو قـماش . جـفـفتْ خـديها بـأصابعـهـا التى أخرجتها لتوها من برطمان الطرشى وارتج عليها .لا تعرف أى شئ تقول.

قال (جميل) :

- تماسكى .

ونظر إلى عينيها .

هجستْ بأنه سيقول كلاماً كثيـراً ، وأنه ربما طلب منها ما يغير حياتها . ربمـا خلصهـا من برطمانات الطرشى والـمخلل. لن ترفض له طلبـا . لن تكسـر له قلباً. لو طلب الزواج سـتوافق . لو شـاء أن يعاشـرها دون زواج ستعـاشره . تعبأت تمـاماً وتهيأت له. بكل مـسامها تفتـحتْ ، كيف يمكن لشـفـتـين أن تقـولا كل هذا الكلام الحـلو ؟ . ليتـه لا يكف. لا .. ليتـه ويحدثهـا بما يريد . نعم ليحـدثها بما يريد ،فكل مـا ينطق به حلو . حلاوة الملبن والعـسل ، ابهـجـهـا أن تلتـقط من فـمـه الكلمـات الأكـثـر بريقـاً وألفـة..الكلمـات التى تريد سمـاعـها:(سـآخـذك)..(تعالى مـعى).. (لا تتركينى) .. يالها من كلمـات . يالها من بشـــارة . حـثته بعينها .. قـــل يا (جميل) .. أكمل .. قل ..

فجأة انتهى (جميل). فجأة نطق . نطق بما ألجمها قال :

- نحتاجك فى الكباريه الجديد .

بغير ما تردد أمسكتْ برطمانات الطرشى وبها ضربته .

مـــواجهـــــة

" لنفترق "

قررتْ وليكن ما يكون . إلا أن المرأة المطلة من المـرآة أوقفتها. تبادلا النظر . كلتـاهمـا تشبـه الأخـرى ، غيـر أن إمـرأة المـرآة أقوى . بادرتهـا : احتشدى ثم أطلقيها " لنف...ترق". لا بأس ضُميها لكن بقوة ." لنفترق " . لا تتنحنحى . بادريه بتفجـيرها. أطيحى بوجهه " لنفتـرق ". ليس هذا كافياً قولى .. " لنفترق " . انفجرى .. هيا .. انطقى ..

- " لنفترق" .

جميل .. مرة أخرى .

-" لنفترق " .

كرريها .

- " لنفترق " . " لنفترق"

رائع . إذهبى إليه. أذيقيه ما أذاقك . دمريه ، فأنت الآن جاهزة .

مشحوذة الهـمة حملتْ حقيبة يدها وانـصرفتْ . وإذ تهم باغلاق الباب توقفتْ . يدها على الكالون وصدرها ما يزال يعلو ويهبط ، إصبعان تحركا أو ثلاثة ، التواءات اعترت وجهها واختلاجة هزت جسدها . مسرعة عادت إلى المرآة تـواجهها . هى نفس الـمرأة . لم تمهلـها. بكل ما لديـها من غل سبـتها . ركلتـها فى قصـبتهـا وبصقت عليـها ، ثم عبـأت نفسهـا فى لكمة واحدة وجهتها إلى فكها فانهارت تماماً وتوزعت مع هشيم المرآة شظايا .. مجرد شظايا .

للوطن منهن حضور .. للوطن فيهن نصيب

١- تلك الفتاة

٢- سامية وزفت الطين

٣- تراشقـــات

٤- نـــــورانية

٥- إمـــرأة بذيل

٦- بلـــــد

٧- البنت فى الثوب الأحمر

٨ - ريــــاح

٩- لا

١٠- التهـــاب



من أين جاءت تلك الفتاة ؟

أى قطار ألقى بها .. أي أنوبيس أو طائرة ؟

قيل بل رماها البحر ، وقيل أسقطتها سحابة . إلا أن البحر الرصاصى اهتاج ومد ألسنته " لستُ أنا " والسماء الملبدة سمحتْ للسحب المغتاظة بأن تبول علينا فبالتْ وتقلقلتْ البحيرة فارتفعت نوافير الطين وغطت المنتجعات المتماسة بحوافها .

قال السائقون والكمسارية والحمالون ومفتشو الجمارك " لم نرها فى محطة أو موقف أو مطار ". وزأر كبير الشرطة "ربما انبثقت من المجارى". فانبرى رئيس البلدية " مجارينا نظيفة ، ما فيها نتاج الأطهار البررة ". لكنها الفوضى تتفجر فى كل مكان تظهر فيه .تثور أتربة وتشتعل حرائق ويعم الهياج . الكباش والجديان تناطحت . انطلقت هى والقطعان من الحظائر إلى تقاطعات الأسفلتْ وافترشتها . تطايرت أعراف الجياد والأفراس وقدحتْ سنابكها بلاطات الأرصفة، واختلطت الأبقار بالثيران والخنازير وذوات الألسنة الصنوبرية ، فيما مد البشاروش أعناقه وطار هو والبط وطيور الغُر فوق بيوت المدينة .

تشبثت الحرائر بحواف النوافذ لئلا يسقطن ، وفرحت بنات الشوارع وهللن ، فيما هجر الأزواج الأسِّرة ، وتخفف الفتيان من الأثقال التى

أجبروا على حملها ، وتواثب أصحاب العيون المطفأة بالإتجاه الذى تكون فيه ." أولادنا يتسربون . يمشون وراءها ويهطعون " . ثم ركل نقيب المعلمين المنصة وألقى بالميكروفون .مصفر الوجه اعترف آمر المرور" فقدنا السيطرة على الشوارع ". وفى البورصة علا شخير السماسرة واحتقنت جلود رجال الأعمال. ضج الحكماء بعدما فارقتهم ابتسامات الدراية ، " وأين صناديد الجيش ؟ !" ، غير أن راكبى المجنزرات تركوها ، وحاملى الأسلحة رموها ، وفك الجند أزرة ستراتهم وتبعوها .

تراكل الساسة ورجالات الحكومة ، وكتبتْ الصحف عن الوزير الذى فر من تحت القبة بعدما أسال النواب دمه ، قال عدد من المحللين " لا يعنى ظهورها فى مدينة واحدة أنها أصبحت مشكلة قومية، " إلا أن الدوائر الانتخابية التهبت لما ظهرت فى كل النواحى بذات الهيئة فى ذات الوقت. لم يراها أحد فى محطة أو موقف أو مطار. لم تنبثق من أرض أو تنقذف من بحر أو تسقط من سماء يكفى أن تتجمع فى الخلاء أو بين البيوت كتلة من رياح أو ألق من ضياء ، أو غمامة من غبار أو دخان أو ضباب فإذا بها موجودة ، وإذا بالجنون وبالحرائق .

قالتْ صخرة " هى وحدها ولا أحد غيرها يستطيع تحريكى ". وتنهدت حصاة " ليتها تمر على .لو فعلت لتحولت إلى هضبة أو جبل". واهتزت قشور الملاط فوق الجدران ، وتأرجحتْ فيما تلاطمتْ الحشرات فى خروجها من تحت جير الحوائط ومن الأخرام التى أحدثتها الرطوبة .

" ميتافيزيكس" ، بل " ميتامورفوسيس " ، ربما كانت هى " الميتابوليزم" .. لا هذه ولا تلك ، إنما هى حالة فريدة من حالات " المتياريالزم ". وتضارب أساتذة الجامعات والعلماء . خلعوا

مهتاجين أرواب الوقار وشهروا المشارط والأحماض وكتل المراجع والموسوعات فى أوجه بعضهم البعض . دمروا بأيديهم أنابيب الاختبار والمعامل والمكتبات وغرف البحث والمدرجات ، وخرجوا مشخنين مشعثين إلى الشوراع وركضوا ركض السوقة والعوام باتجاهها .

باقتضاب قالت المذيعة إن المتحدث الرسمى لمؤسسة الرئاسة صرح بأن الموقف تحت السيطرة ، فى حين نقلت وكالات الأنباء صوراً حية للقلق الذى يسود الدول المتاخمة ، وانكفأ أعضاء المفوضيات فى الأمم المتحدة على المذكرات التى انتووا تقديمها إلى مجلس أمنها وجمعيتها العمومية.

وما تزال الأتربة تثور والحرائق تشتعل ، وشاهدها حراس الحدود بأعينهم المجردة ، وما يزال السؤال يتردد : من أين جاءت تلك الفتاة ؟

ثبت الحواشى :

- ميتافيزيكس Metaphsics ما وراء الطبيعة .
- ميتامورفوسيس Metamorphosis التحول أو الانسلاخ.
- ميتابوليزم Metabolism التغيرات الكيميائية فى الخلايا الحية المرتبطة بالطاقة والنشاطات الحيوية والمتصلة ببناء البروتو بلازما وهدمها أو ما يعرف بالأيض.
- ميتارياليزم Metarealism من اشتقاق المؤلف ويقصد به ما وراء الواقعية ، أو الواقعية الأسمى ، وهو مصطلح أدبى سيق لتبرير ظاهرة غير طبيعية .

سامية وزفت الطين

اختفتْ سامية . خطفها العساكر ووضعوها فى البوكس كانت تتظاهر وتهتف وهم بخيزراناتهم يضربون . رمتهم بشئ وجرت . رمتهم لأنهم أخذو أخاها بالأمس .أمام أبواب البيوت وداخل الدكاكين المغلقة دار لغط، قيل لم يخطفوها بل قتلوها ، وما وضعوه فى البوكس هو جثتها . وقيل : بل أصابوها ونقلوها إلى مستشفى لا يعرف لها عنوان. المكروبون قالوا إنهم قبضوا عليها مكسورة الأنف مشرومة الشفة لكن سليمة ، وأن ما بها من حسن قد يضعها بين فكى اليوزباشى زفت الطين.

اليوزباشى زفت الطين يُلقى الرعب فى نفوس الكافة . رجال، نساء، عيال ، لايهم . كلهم عنده كلاب وأولاد ستين كلب ، كلهم منه مرعوب ، لا يعرفونه بغير هذا الإسم. اسمه الحقيقى طُمس واندثر ، لا يكاد يُذكر فى غير المكاتبات واستمارات صرف الرواتب . شغفه بالفقيرات ومن بهن مسحة من جمال – مجرد مسحة من جمال- تحكى عنه روايات وروايات. من راقتْ له استعملها أو أهداها لواحد ممن يجاملهم. لذا فإن الشكاوى التى تقدم ضده تحفظ فى الأدراج باعتبارها شكاوى كيدية ، وأحيانا - بحذق وحذر -يُلوحُ بها فى وجهه ليتوخى الذوق والنظافة فيمن يرسلهن.

لا توجد إمرأة أو بنت تطمئن على نفسها إذا ما اهتاج زفت الطين أو أصابته الغُلمة . الضحية تجد نفسها فى ورطة ، فإما الاستسلام وإما الفضيحة ، ولربما السجن .

الأمهات يخفين وجوه بناتهن ووجوههن أيضاً خوفاً من عينيه ومن عيون المخبرين . المخبرون يُعاملون معاملة الباشاوات لأنهم الأكثر دراية بما فى البيوت . جهاراً نهاراً يقبضون المعلوم وإلا هيأوا الأمر لليوزباشى زفت الطين .

ربما صادهن مثلما تُصاد الفراشات ، وربما تساقطن عليه مثلما يتساقط الذباب . مع الذباب الأمر أيسر ولا يتطلب جهداً ، يحدث هذا فى قضايا السرقة والمخدرات والدعارة. نعم .. هذه القضايا معين طيب.لكن مع السياسيات فالأمر شديد العسر ، فلم يكن يوماً فراشات أو ذباباً ، ويحتجن إلى مهارات صيد خاصة .

وهاهى ذى سامية تدخل إليه برجليها . سامية التى ترتدى الرشيق الأنيق وترفع الياقة وتشمر الكمين . البلوكامين عبد العال أشفق عليها، أعطاها القُلة لتزيح الدم المتجلط فوق وجهها ، وبشريط ورقى مصمغ كبس قطعة قطن ، عاصها بالميكروكروم ، فوق الشفة المشرومة . هكذا نزل عليه سهم الله . وسهم الله حين ينزل لا يحتاج إلى أسباب ، لكن البلوكامين عبد العال جمع من الأسباب ثلاثة . فهى بنت بنوت ، وهى جامعية ، وفيها - وهذا هو الأهم - شئ من حسنية ابنته التى دفع بها إلى كلية فى محافظة بعيدة ليبعدها عن ابن القحبة زفت الطين . فى واحدة من نوباته الشجاعة تعمد أن يكتب إلى جوار اسمها بخط عريض يخرق العين(قضية سياسية)، لعل زفت الطين يعمل لها حساب ويفكر فيما وفيمن عساهم أن يكونوا وراءها . لكن لحظها العاثر لايوجد بالحجز من جنس الحريم سواها .

قال : هاتوا لى بنت الكلب اللى اسمها سامية .

تفرس فيها من فوق لتحت واستملحها :

- انت يا بت عاملة لى زعيمة .

لم ترد ، وفى الخارج راح البلوكامين عبد العال يأكل فى نفسه :

- بقى بتضربى البوليس ،وبتهتفى ضد الحكومة ؟

ومثلما هى العادة ، فتح ملفا ليس به شئ :

- حاتروحى فى ستين داهية

وقرأ من دماغه :

- تقويض نظام الحكم .. تأليب طبقة على طبقة .. ترويج شائعات .. قيادة المظاهرات ومقاومة السلطات

ورفع عينيه وغزهما فيها .

- يمكن نلاقيلك كمان تهمة الانضمام إلى تنظيم مسلح .. مش أبوكى اللى احنا قبضنا عليه إمبارح.. أبوكى واللا أخوكى ؟

جاء التليفون بالفرج للبلوكامين عبد العال ، فاقتحم الباب فى الوقت الذى اقترب فيه زفت الطين أو كاد من سامية. رطم الأرض وضرب تعظيم سلام :

- القرية السياحية بتشتكى من تلات شحاتين بيضايقوا الزبائن .

على الفور نالته من العينين المشتعلتين شعلة حريق :

- جرى إيه يا عبد العال .. مش شايفنى باشتغل ؟ .

خرج عبد العال مغيظاً مهيضاً ، ومن ورائه أغلق زفت الطين الباب بالترباس وبحركة واحدة احتوي وجه البنت بين كفيه :

- خدى المسائل ببساطة تستريحى .

من فورها انتزعتْ وجهها وجسمها . تدلى الشريط المصمغ فألصقته وتراجعت . تقمص هيئة القط .. هيئة اعتادها وحققت نجاحات كثيرة ، لكنه فوجئ بها قطة من نفس الجنس . خمشته فى وجهه فلطمها . دفعته فدفعها . وفى اللحظة التى سقط فيها البارافان وانقلبت الكنبة . كان البلوكامين عبد العال قد أرسل على مسئوليته إشارة إلى النيابة يخطرها ببيانات المقبوض عليهم فى مظاهرات الصباح ، أكثر من هذا كلم عامل السويتش بنفسه وناشده أن يتدخل لدى سعادة رئيس النيابة أو سعادة الوكيل لانقاذ البنت من زفت الطين . لكن عود البنت كان قد انثنى تحت زفت الطين ولامس ظهرها بلور المكتب . سمع شحيره وأناتها وحار ماذا يفعل، لو اتصل بالقادة فالدنيا ستقوم ولن تقعد وهو الخاسر فى النهاية.

لم تُفلح الأشياء التى خطفتها سامية من فوق المكتب ورطمته بها . عثرتْ يدها على فتاحة الخطابات فغرستها فى قفاه ، اعتدل وتأوه فهرولت إلى حيث مطفأة السجائر البللورية وقبضت عليها . نزع الفتاحة وترك دمه يسيل :

- يا وسخة يا بنت الأوساخ .

كلب مسعور أو ذئب هائج . هذا ما رأته إذ يعاود الهجوم بقبضة

طائشة انتزع خصلة من شعرها. بالمنفضة رطمتْ صدغه ، بصق الدم فتدلت من فمه سنة وتأرجحت. بلكمة سقطتْ القطنة من فوق شفتها فبان الشرم . بكل قوتها صفعته صفعة رجَّته ، طال بلوزتها فمزقها ، دارتْ عرى صدرها بيديها ، فأمسك بالحمَّالة لكنها راغتْ . إذ ذاك قبض على طرف جوبتها ورفعها . بانت ركبتاها فابتسم . مُثخناً مُجرَّحاً ابتسم . ليس بينه وبين متبغاه إلا اليسير الضئيل ..هذا ما طمأن به نفسه . لكنها فاجأته بضربة بين فخذيه وجرتْ صوب الباب. تشبث بإحدى ساقيها يستوقفها ، ضربته بالقدم الأخرى ولم تتوقف . فقط انخلعتْ فردة حذاء فى يديه ، رماها بها وكان الأقرب إلى الباب فحال بينها وبينه . هذه حال لا تسر . لو تطلب الأمر سيخرج الطبنجة .

البلوكامين بالخارج يحترق . لماذا هذه المرة ؟ ..لماذا بكل هذه القدر من الاهتمام ؟ .. سيفعلها ويكسر الباب المتربس . لكنه الآن مشغول بسويتش النيابة . حلف العامل " والله العظيم قلت للاثنين . والله العظيم قلت لهم كل اللى انت قولتهولى .. والله كل واحد قال لى طيب " وفى الداخل وقفا متواجهين . هو مسنداً ظهره إلى الباب وهى وسط ركام الغرفة . يداها فوق ثدييها ، وبعض مزق من البلوزة. سنته المدلاة تزيده بشاعة وتزيدها قوة . تقدمت فألصق ظهره أكثر بالباب . مَدَّ ذراعيه ليصرعها ، لكنها تقدمت نحوه . نظرتْ إلى ما بين فخذيه فانتبه إلى أنها قد تعيد الكرة مَدَّ كفاً ليحمى المنطقة فانتهزتها فرصة ولكمته فى فمه . فى السنَّة المعلقة . انغرست بالشفة العلوية وشرمتها " واحدة بواحدة ". مالت قليلاً فمال هو أيضاً .من فورها جذبته من شعر رأسه لينهبد بكل جسمه على الأرض ضربته بقدميها وسحبته إلى وسط الغرفة ، عَدَّلت وجهه

المائل إلى الأرض . جعلته فى مواجهتها بالتمام ثـم كورتْ بصقة الصقتها بين عينيه .

خطتْ من فوقـه ، وبكل ما بها من عـزم فتحتْ التـرباس. تواجهتْ هى والبلوكامين عبد العال الذى انتفض . كـادتْ تنهار. راعة حالها فأفسح لها الطريق. هَمّ حارس الباب بإيقافها ، فأشار إليـه أن اتركها فتركها ، فيما جاء وكيل النيـابة وكاتبه . بخطى مسـتقيمة اتجـها صوب البلوكامـين عبد العال وسـألاه عن اليوزباشى زفت الطين. بهدوء أصلح البـيريه وتقدمهـما إلى الباب المفتوح .

السمـاء صحو ، زرقـاء صافيـة . من البعيـد تأتى أصوات التراشـقات المتـبادلة . ننظر إلى انعكـاس صورنا فى الماء فـتجـعدها أنفاسـنا ، ثم ما تلبث أن تلتم لتعود فـتتمدد ، وفى الأسفل منها الأحجـار ، بيضاء ساكنة ، وثم سمكات ضيئلة الحجم تهتز فى مواجهتنا،فيما ظل هو راقداً فى القاع ، وعلى وجـهه انطبـعتْ الشمس التى تحـمم بهـا كثيـراً . عيـناه مفـتوحـتان باتساعهمـا ، وشفتاه منطبقتـان على ابتسامة صماء ، شـاردة غسلتْ. المياه آثار المطاردة وحمرة الدم ، عدا بقايا خفـيفة ظلت تحف بشراشيب الثقب المهدب. نرى فـقاقيع الهواء إذ تصّاعـد من داخل الثقب فتهتـز الشراشيب محمرة الأهداب ، وتهتز .

نهتف :

- هى الحياة تدب فيه .. هو حى ...هو حى ..

غير أن ثعبانا مائياً يأتى من ناحية قـدميه الحافيتـين ويلتف حول عنقه ، ثم يمر من أمام عينيه المفتوحتين ، ويعبرهما إلى البندقية الملقاة إلى جوار كفه المفرودة باتساعها . يدور حولها ثم يدخل الماسور ويسكن بداخلها.

تقول كُبرانا :

- هو أبونا .. تمعنا فى خبرة الحياة إذ ترتسم على وجهه.

وتقول الوسطى :

- هو أخونا .. تأملا العزم الذى تنطق به ملامحه .

وأقول أنا :

- بل هو ابنى .. أنظرا كم هو جميل وحالم .

وجاءت سمكة . دارت حول وجهه وألصقت فمها بالشفتين الباسمتين،فلم ندر هل تلتقط شيئاً أم تُقَبِّله . ضربت بزعانفها الماء فامتط الوجه وتعرج ثم عاد والتم . ظنناها قد عادتْ من حيث أتت ، لكنها اتجهت إلى الصدر ومست الشراشيب ومن الثقب المهدب انزلقت إلى داخله فاهتز الصدر والبطن لكن وجهه ظل على ما هو عليه ، وظلت شفتاه منطبقتين على ذات الإبتسامة الصماء الشاردة ، ولم تتحرك كفه المفرودة على اتساعها بجوار البندقية .

بكينا وقلنا :

- لا يمكن أن نتركه هكذا .. فلنرفعه وندفنه بما يليق . شمرنا أكمامنا وذيول جلابيبنا وهبطنا إلى ماء البحيرة .

لكن أقدامنا عكرتْ الماء فلم نره . دلينا رؤوسنا حتى ابتَّلتْ ضفائرنا وخضنا فى الماء بكامل ملابسنا فلن نره . تخطفنا القاع المعكر بقبضاتنا دون أن نلمسه . أخذنا الهوس فرحنا نضرب الماء من أسفل ومن أعلى ، نرتمى فوق عكارة القاع ونجوس بين الطحالب ، نحفر ونزحف ونتقلب دون أن نجده . فى وقت واحد خرجنا إلى الحافة مبلولات ، شعثاوات ، تهزنا ارتجافات البرودة والحسرة ، ومن عيوننا انهمرت الدموع حارة ملتهبة إلى أن صفا الماء ، فرأيناه ثانية راقداً فى القاع ، وعلى وجهه انطبعت الشمس التى تحمم بها كثيراً ، ومن البعيد ظلت أصوات التراشقات تأتينا عالية مفزعة .

عجباً لهذه الفتاة ، أهى كائن أثيرى لا نعرف كنهه ؟.. أم هى ملاك تجسد فى هذا البدن الرائق المتسق ، المشع بهاء ورونقا ؟ .. إنها كعهدها فى فرحة غامرة . تمسح على رؤوس الأطفال وتزيل عنها الأوساخ وتأخذ بأيديهم إذ يتقافزون فوق أكوام القاذورات ومياه الطفح . تعالج جروحهم وتطهر ثآليلهم وتجبر الكسور والخواطر .. تُسَرِّى عن المتزاحمات حول حنفية المياه وتساعدهن على حمل الصفائح.تحمل عن العجائز مشتراوتهن، وتقضى للكهول حوائجهم ، إنها تكاد تضئ ظلام الحارة بحضورها ، والرجال كل الرجال يُغضون من أبصارهم إذ يرونها ثمة موسيقى سماوية تتجاوب بين البيوت المتصدعة وتلف هذه الكوكبة من ذوى الأسمال المشرئبين بأعناقهم باتجاه الهالة التى تحيط بها . أما ترى ؟ .. لقد هدأت الأتربة وضاعتْ رائحة العطن ، وتعطر الجو بذلك الأريج الجميل خفى المصدر . هاهم يتلاحمون فى ألفة ويمشون خلفها خفافاً أصفياء ، يقتربون من حدود الحارة ولا يجرؤون على التقدم ، لعلمهم أنها ستقف فوق ذلك الكوم من الحجارة ، حيث نفايات المدينة .. هناك .. فلا يقابلها سوى الصحراء والجبل وشجيرات الصبار . ستلوح لهم فيلوحون لها ، وإن هى إلا ومضة ثم تنطلق إلى أعلى وتذوب بين النجوم ، وإذ يشرئبون بأعناقهم ويشخصون بأبصارهم، يتمنون صادقين أن تعود إليهم فى الصباح ، كعادتها معهم .

إمـــــــرأة بذيـــــــل

جاء القطار ولفظها . سوداء فحلة . لهـا أنف أفطس وشفتان غليظتان ، صدرها ثقيل وعجيزتها عريضـة . هامتْ فى الشوراع فتلقفها تاجر . قال: " الدنيا شتـا وهذه الجائعة سوداء .. أطعـمها وأدفئ بها فراشـى فترم عظمى وتمص منى الرطوبة".

فى الصباح رماها وأغلق الباب .

فى مجلس التجار قال : " فتحتُ لهـا الحمام لتنظيف نفسها ، وإذ تخلع ثوبها ولباسها الداخلى رأيتُ ما لم أصدقه " .

سألوه : " مـاذا رأيت ؟" . قال :" كـان لها ذيل ". هتـفوا : " ذيل ؟ ! .. إمرأة بذيل ؟! " . قال : " نعم .. إمرأة بذيل .. ذيل ملفوف أملس وله ذؤابة من شعر " .

قال المـدرس : " هذه إمرأة مـسكينة .. آخذها تنظف لى البـيت وترتب كـراريس الأولاد .. تطبخ لى وأؤا كلـهـا ، وفى الليل أدفن فـيـهـا غُلمـتى واستريح ".

رآه واحد من مجلس التجـار فأشار له أن اتركها وتعال. استـمهلها أمام مدخل العـمارة وذهب يستطلع ما يـريد . قال له التاجر : " احـذر .. زميلنا أكد أن لهذه السوداء ذيلاً وحافرين ". قـفز قلب المدرس إلى حلقه فَغص. نظر إلى فحولتها إذ تسد المدخل وخايلـته تلك الثنيات فوق ردفيها وتنهد:

"ياه .. ياله من ذيل طويل " ثم أدار ظهره ومشى إلى حيث اختفى .

في الفصل حكى لتلاميذه عن تلك المخلوقة السوداء التى كادتْ تغويه ، لولا أن حماه الله وقيض له من أخبره بأمر ذيلها وحافريها والقرنين اللذين تخفيهما تحت قرطتها ".

قال الشيخ : " هذه المرأة لا عائل لها . فحولتها قد تغوى من فى صدره نزغ ، وجوعها قد يقودها إلى الرذيلة .. آخذها تفرش الحصير فى مصلى النساء ، وتقوم عليه عناية وحراسة ، فذلك أطهر وأقوم " .

رآه أحد مريديه يهم بمخاطبتها فهتف به : " أيا شيخ ". جاءه الشيخ فحكى له عن ابنه عن ربيب له عن أستاذه أنه قال : " رأيت فى شوارع المدينة إمرأة سوداء فحلة ، لها أنف أفطس وشفتان غليظتان صدرها ثقيل وعجيزتها عريضة ، لكنها تخفى ذيل خنزير وساقى عنزة وقرنى ثور " .

تفل الشيخ وعذبل وسحب مريده واحتميا بالمسجد ، صاح فى مرتاديه: " الشيطان يعربد فى شوارعنا..حل فى جسد إمرأة سوداء فحلة فاحذروها، لأنكم إن تحذروها تحذروه " .

قال الضابط لعسكر الأورطة :" الهمة يا أشاوس ..الشيخ يستهزئ بنا . شواربكم افتلوها . صدوركم انفخوها . إن قلت اهجموا فاهجموا .. وإن قلتُ اضربوا فاضربوا ، لا تخافوا ، فما الشيطان إلا مخلوق مثلكم . هيا .. احملوا خياتكم واتبعونى " .

تحلقها رهطٌ كثيف من الناس ، وتداخلت الآيات المنجيات برجمات الحصى. مرتجفاً أشار الضابط ، فالقيت أكثر من خَيَّة . مغمض العينين

هتف " شدوا " بأصابع مرتعشة شدوا . نفثة واحدة ويحترق الجميع . هذا هو المؤكد . لكن الخيّات ضاقت . أطبقت على الرقبة والصدر والوسط . اختلج الضابط وزأرة الأسد الهصور : " اهجموا " ، فانطلقت من أحدهم صيحة الاستشهاد ورمى بنفسه عليها. تشجع الآخرون وجاوبوه بالصياح والارتماء فسقطت وسقطوا فوقها وثار غبار . صرخ الضابط : ؛ انزعوا القرطة .. اسحبوا اللباس .. مزقوا الجورب " . ما أن طارت هذه الأشياء حتى تسمر الجميع. عيونهم مدسوسة فى السواد المقيد والعجيزة العارية .

تقدم الضابط والشيخ ومن ورائهما المريد والمدرس. وقفوا بين فخذيها وتبادلوا النظر ، أما التاجر فقد اختفى قبل أن ينالوه بسوء. طحن الضابط غمغمة بين أضراسه ثم صاح بأعلى صوته:"كذب التاجر"

عندئذ ، علا صفير القطار . من فورها نهضتْ المرأة السوداء . نفَّضتْ نفسها . والتقطت أشياءها ، ومطأطئة الرأس اتجهت صوب المحطة ، وصعدت إلى القطار ،فيما هبطت من نفس العربة إمرأة سوداء فحلة ، لها أنف أفطس وشفتان غليظتان ، صدرها ثقيل وعجيزتها عريضة ، وعلى ردفيها تبين بوضوح ثنيات الذيل الملفوف تحت ملابسها .

صـوروها على هيئـة عجـوز شمطـاء . عَرُّوها على الحـوائط ونمطوا جسمها ووجهها بالشعر . دسوا السجـائر ومباسم الشيشة فى فمها. رسمها المراهقون على أبواب دورات المـياه بثديى إمرأة وعضـو رجل. أغروا بها الأطفال ، وصنع الكهول علـى هيئتها عرائس للـخز بالإبر والحرق بالنار . وهى لا تفعل أكثر من هز كتفيها . ترفع رأسها وتمشى غير مبالية ، قد تدفع أحدهم ، وقد تركله أو تشـتمه . لم يعد أحد من أهليهـا يجرؤ على المشى معهـا بعدما جعلها المـشايخ مادة لخطبهم . تنادوا عـبر المنابر : " احذروا هذه المرأة، إنهـا تؤلب علينا نساءنا ". قالت :" ولو .. " وصلتـها خطابات تهديد . اعترضها المتشددون بالمُدى والسكاكين ، خافتْ لكنها واصلتْ . قالت الشرطة : " أنت تـحت حمايتنا سنقبض على هؤلاء المـهووسين من خلالك ". إلا أن الرصـاصات بدأت تنقر حـوائط الأبنية التى تمر عليـها ، ولاحقتهـا قنابل بدائية وأخرى مسروقة من الجـيش . سقط أبرياء وامتلأت السـجون . قـالت الصحف : " لم يبق سـوى الهاون والآربى جى ومـدافع الميـدان ". لما نجتْ من الدمار الذى أصـاب بيتهـا ، واجهتهـا الشرطة :" فعلنا غاية ما تستطيع .. تراجـعى تهدأ الأمور " . لكنها قالتْ : " أبداً ". وما تزال البلد تشـقى بالحـركـة وبالدمـار ، بينمـا انزوتْ هى فى الغـرفـة التى وضعـوها فيهـا قسراً، لا تقـابل أحداً ولا يكلمهـا أحد . وبدأت شعـيرات خضراء تنبتُ فى ذقنها وفوق شفتيها .

البنت فى الثوب الاحمـر

البنت التى تَخُبُّ فى الثوب الأحمر وأيام المراهقة الأولى، وتجرى من كلمات أبناء الجيـران ، وتلملم فتحة صدرها إذا حادثت البـقال أو العلاّف أو المكوجى ، وتقفل الشبـاك فى وجه التلميذ الذى يصفر لهـا من العمارة المـقابلة، وتسـحب طرف ثوبهـا إلى مـا بعد ركـبتـهـا إذا ما دعـاها أبواها للجلوس مع الضيوف . إنها البنت التى تقف أمـام المرآة وتنظر إلى وجهها من هذه الناحيـة ، ثم من هذه الناحية ، تنكش شعـرها ثم تعيده فورمـة كما كـان ، أو ترسله إلى كتـفهـا ، أو تربطه بشـريط ، هذه البنت التى تحتـضن حقيبتها ، وتتمـخطر فى غدوها ورواحها من وإلى المدرسة، وبالكاد بدأت تبحث عن القمـر فوق السطوح ، هى هى ذات البنت التى اقتحـمت حشود المظاهرة وهوت فى الفـراغ الفـاصل بين بنادق الجند والوجـوه الغـاضبـة لمجرد أنها أرادت العودة إلى بيتهـا الذى استند الضباط إلى جدرانه ، حتى لا يتهمها أبواها بالتلكؤ واللعب مع الصبيان .

ريــــاح

كالريح العاصـفة تأتيهن فتدوم المـكان . تَقْلب ما استقر فـيه وتمضى، وهن منكسرات وذاهلات عن أمـور كثيرة . يـستمعن إليـها إذ تزوم وتسب وتشير إلى مواطن الانكسار فيهن، فى كل مرة يتمنين ألا تتركهن وتمضى ، لكنها دائماً تُلقى بحصـياتها وتمضي .. يثقن الآن أن شيئاً فـيها لا ينكسر ، وأن عينيها حين ترفعهما ترتفعان ، وحين تثبتهما تثبتان ، وأنها تشير باتجاه الرمال فتطير، وباتجاه البحر فيفيض ، وباتجاه الرجال فيركعون ويزحفون . فكرن فى القيود التى تشدهن إلى قضبان الأسرة وأبواب المطابخ ، وقلن : " ليست ثـقيلة هذه القيـود ،وليست منيـعة هاتيك القـضبـان " . هذه المرة رأينها فنزعن عنهن القيود وحطمن القـضبان وتحولن إلى رياح عواصف ، ورُحن يدومن معها فى أماكن أخرى ، يقلبن ما استقر ويمضين .

لا

فارقتْ زوجها لأنها أحبتْ الشعر.

وتشردتْ من كل عمل لأنها فى كل مرة تكتشفهم .

وأصابها الهزال لأنها لم تأكل من عرق فخذيها .

وجُزّتْ رأسُها لأنها مشت مع الذين جاهروا بقولة " لا " .

اقتـربْ ، فالليل ثقـيل ، والشبابيـك مغلقة ، والنسـاء من فرط خـوفهن شـددن الرجال والأولاد ولذن بـأسرّتهن. أقـرأ في عـينيك لوعـة الحرمـان فـاقتـربْ وتعـال نقطع الطرقـات الخـاليـة إلا من الحـجارة ونـثار زجـاج الفـاترينات. لا تلمس تنورتي فيلحظك ذلك الجندي المُسَهّد على قـارعة الطريق هناك ، كأن رأسه مُركّب على زنبرك يستند إلى العامـود الخرساني وينظر في الاتجاهين .

إهدأ ، فـقط دعني المس كـفك ، إلمس أنت أيضـا كـفي ، وسـرْ إلى جواري تحت المـصابيح المهـشمة ، ووسط هشـيم النهار. ارفع رأسك أو اخفضها ، فسيـان لدى أي مراقب يلحظنا الآن رفعك لها أو تنكيسك إياها .. فأنت تنظر للسماء تستـمطرها الإجابات أو أنت تبحث في الركام أسفل قدميك عما عساه ينفع . من يجرؤ على الظن الآن أننا نتخالس المتعة ؟ ..

كل شئ هادئ والأدخنة الحارقة للجـفون تلاشت في هذا الشارع . ثمة عيون تنظر إليـنا ، أشعر بوخزاتها فـوق جسمي . انظر . خيـالاتهم تتماوج من وراء خصـاص الشبـابيك . ربما اتهـمونا بالجنون . أيا كـانت ظنونهم تعال نمـشي تحت البواكي لئلا يُـحلقوا فيـنا ، فأنت بلهفـتك تكشفنا . لا تتعجل واهبط بكفك إلى كفي . لا بأس من أن نتضام بالأصابع ، قد تكون أصابعي باردة الآن لكنها ستلهبك بعـد قليل . تعال نؤرجحها . لنجر بنزق تمهل فلجرينا صوت .

لا تلتصق بى . فقط ضع كفك فى كفى ودعنا نمشى. أنظر إلى تلك القطة التى تمشى عند آخر الرصيف ، أى شئ تجر ؟ .. قلتُ لك اخفض ذراعك . أنظر ، هاهى رصاصة خَزَّتْ عين المطرب المعلق على الحائط وأسالت التراب الأحمر فوق خده الذى طالما خايلنى وخايل البنات . من الأفضل أن نلوذ بهذه العطفة ونمشى بين الجدران المثقلة بالشعارات . هذه العطفة ستسلمنا إلى الشارع العريض . إن عبرناه أصبحنا أمام أول بيوت حينا. ثلاثة أزقة من هناك ونصبح فى بيتى . فى بيتى سأتركك تفعل ما تشاء، بل سأخرج منك أنا ما أشاء، فاصبر. انصتْ . هذه أصوات أحذيتهم . إنها مشيتهم المنتظمة. أعرفها من ألف مشية ، لا تنظر خلفك ، وإلا استرابوا فينا ، فلنمش كما نحن . لا تضطرب. هاهى أصوات أحذيتهم تختفى . بالتاكيد ابتلعتهم التقاطعات الكثيرة التى خلفنا. لا .. لا ترطم الكيزان والأخشاب فليس هذا وقت الفرح ، هذا خطأ ، فقد اقتربنا من الشارع العريض، فقط هيئ نفسك .

ماذا جرى للشارع ؟ .. لأول مرة أراه معتماً إلى هذا الحد. أنا أحب العتمة ، لكن ليس بهذا الشكل ، ليس إلى هذه الدرجة. المصابيح محطمة وهم على ما يبدو قد سحبوا الكهرباء . زورى يحرقنى وعيناى أيضا. كانوا هنا بالتأكيد. دقق . أليست عرباتهم تلك المتقاطرة فى الناحية الأخرى ؟ نعم .. إنهم يدفسون فيها رؤوسا وأجساداً ،فتوقف حتى يغوروا . تبدو خائفا. أصابعك توقفت عن العبث ، لا عليك . أنا أيضا خائفة . من لا يعرف طعم الخوف ، لا يعرف معنى الشجاعة ، سأنسيك همومك عندما نصل . آه ، عرفت ، القطة كانت تجر رباطاً مدمماً .نعم ، ما كانت تجره هو رباط مدمم . أنا متأكدة .

اسمعني . هات هذا الكيس البلاستيكي المرمى إلى جوارك قبل أن تطيره الريح ، سأريك كيف يمكن أن نمر دون أن نثير ريبهم ، لو خلعت السويتر ودسسته فى الكيس هكذا فإن الحيلة ستنطلى عليهم . خذ . احمله ودعنى أتعلق بذراعك وهيابنا ، سيظنون أننا كنا نتسوق . لاتغرز كوعك فى ثديي وانظر كيف يلقون بهم فى العربات، ما أكثر المكدمين والمهشمين . لا تُظهر اهتمامك . لا تظهر ألمك وهيا. هانحن على قيد خطوات من بيتى، فهات الكيس ودعنى اسبقك . امش خلفى باحتشام ، ثلاثة أزقة وننتهى مما نحن فيه .

لؤلؤ المآقى تهشمه أقدام القساة

١- قلب
٢- قرار
٣- دم ثخين
٤- حمق
٥- أم السعد
٦- ضحك
٧- خيبة

قلب

رفعتْ رأسها ونظرتْ إليه فتوقف . إلى جوار الباب تسمر. منكس الرأس مهزوماً . احتوته بعينيها ، من شعر رأسه حتى أظافر قدميه ، وهو فى مكانه لا يريم ، عصبتْ رأسها وسألته عما جاء به ،وما إذا كانت اللبؤة التى خطفته قد شبعتْ منه ، وأشارتْ إلى كومة الدواء فوق الكومودينو وسألته عما إذا كان يتذكر أن له أما تموت فى اليوم والليلة ألف مرة . تقدم وانحنى على كفها فسحبته ليلثم الهواء ، ذَكَّرَتْهُ بما كان عندما طلبه أبوه وهو يموت فلم يحضر ، وبالمنديل الذى صَـرَّتْهُ على معاشه وتحويشة العمـر فسرقه ، انكفأ على قدميها فتراجعت بجسمها كله حتى مسند الكنبة . قالتْ أنها تعرف عنه كل شئ ، وتعرف أنه أصبح سكيرا ولصا وشماماً ، تنبأت له بأن مصيره سيكون سبرسجياً أو قواداً ، وأنه سيموت ميتة الكلاب ، بلا أنيس أو ونيس .صرخ ملتاعاً :" سامحينى يا أمه " ، فزمتْ الشال حول رقبتها واتجهت صوب القبلة .. " قلبى غضبان عليك ليوم القيامة " . ثم رفعته من قميصه " قُمْ .. فِزْ .. الأكل هناك فى المطبخ ، والبيجامة وراء الباب "، فقام وهو يُقر بأنها صاحبة أطيب قلب فى الوجود .

قــــــرار

ما عادت ترغب فى رؤية وجهها الذى نقرته سوسة الزمن فهرم وشاخ. كل مـا حولنا أيضـا شاخ . المـرآة شُـرختْ ، ومصـاريع النوافذ صـدئتْ ، والستائر والسجاجيد أكلتهـا العتة ، حتى جرس الباب أصابه الخرس ، فلم بعد أحد يفكر فى زيارتها. والأولاد لا يأتون إلا للاعتذار، قد يقبلونها وقد لا يُقَبِّلون ، لكنهم فى كل مـرة يهرولون إلى بيوتهم .. هناك حيث ضجيج الصغـار ودفء الصحبـة . قالتْ : سأنـتحر ، واسـتعرضت طرق الانتـحار حسبما أسـعفتـها ذاكرتهـا . كلها طرق بشعـة ومؤلمة.كـيف يجرؤون؟.. هؤلاء المنتحرون كيف تهون عليهم أنفـسهم؟ .. هكذا تمتمت لنفسها فى المرآة . تأملتْ شفتيها المشقـقتين ثم غادرتها وجلستْ فى مواجهة الباب ، فلربما جاء أحد أولادها وضغط الجرس .

دم ثخين

(١)

هى فى المستشفى ، وهو ملقى إلى جوارها . تفصل بينهما الخراطيم والمعاطف وأجهزة القياس والعربة المكدسة بالمشارط والملاقط . استسلمت لوخزة الإبرة، ورأت دمها يسيل ثخيناً فى الخرطوم ويصل إليه . فى أنفه دُس خرطوم ، ومن جنبه خرج خرطوم ، وفى ذراعيه عُلقت خراطيم ، وعلى صدره ثبتتْ أسلاك لا حصر لها. كتمتْ كل ما فى صدرها وأغلقتْ منافذ دموعها لم تفعل أكثر من أنها أغمضتْ عينيها عليه وتنهدتْ بعمق

(٢)

قالت صور الأشعة الكلى متهتكة ،وقال ذوو المعاطف نحتاج لمتبرع. بهدوء وقعت لهم. وإذ تخرج به متكئاً على كتفيها نبهوا . أكل خاص وشرب خاص وهواء خاص. الانتكاسات تقتله ، والإهمال يميته.

(٣)

هو الآن يمضى فى حياته ، وهى ملقية فى فراشها ، رائحة النوشادر تملأ المكان والقروح تلهب ظهرها . تأتيها الجارات فيفتحن النوافذ. يقلبنها ويغسلن لها . يلملمن الخرق الملوثة من تحتها ويدسسن اللقيمات المهروسة فى فمها . يعطينها الدواء الذى اشترينه لها . يسوين الأغطية ويكنسن التراب ، وهى أبداً قابضة على ألبوم صوره، وقد يحدث أن تفتحه وتقول هذا الولد ابنى .

حمق

ليست سوى أم . لها وجه متعب ومعها قليل من الذهب. يلتف حولها خمسة من الأولاد . يحاصرونها فى البيت . فوق رأسها يقفون . فى مواجهتها يجلسون . عيونهم على الذهب فى رسغيها وعلى صدرها. تفهمهم من حركاتهم إذ يتكاسالون أو يندفعون ، من تهدج أصواتهم وهم يتهامسون، فيها رعشات تكشفهم ، يتعاتبون فترتفع أصواتهم ، تلتفت إليهم فيصمتون .يتوددون إليها ولا ينسون تحسس الأساور ، فى غفلة منهم خرجتْ ، وحيدة تمشى الآن بين البيوت . ترتاد الأسواق المفتوحة والمغلقة. ما أكثر أسواق مدينة نصف المليون . نصف مليون من الحمقى القساة . ما أثقل خطوها . بشجاعة وصرامة تمشى . التواءات المفاصل تؤرجحها. تخلع كعبيها خلعاً من بلاط الرصيف . تحاذر السقوط ولا تُظهر ضعفها. لا تفعل أكثر من أن تمشى . لا تعرف لها وجهة بعينها باللحمقى . ألا يوجد فى البلد كلها واحد ، واحد فقط، مجرد واحد ، يجرؤ على سرقة هذا الذهب ؟ .. يسرقة ويريحها من عيون الخمسة الذين يحصون عليها أنفاسها. ياه .. ليست سوى أم .. مجرد أم فى مدينة بها نصف مليون أحمق .. لماذا يا رب كلهم من الحمقى .. لماذا ؟

قد تخـوض " أم السعد" فـى الوحل أو تستحم بالمطـر . مع العواصف نراها ، وفى وقدة الحـر لا نفتـقدها . مهلهلة الشياب هذا صـحيح . حافـية القدمـين هذا حقـيقى . أيا ما كـان الأمر وكيـفما كـان فهى مـوجودة . هذا يكفى . يكفـينا . نعطيهـا السريس فـتأخـذه ، الجعـضيض فـلا تأنف منه ، يعجبنا هذا فيها فنمنحها الأرز والطحين ، وقد نمن عليها بهبر اللحم ، كل ما نسمح به تأخذه ، تأخذه وتمضى .

فى بيت بلا سـقف تعـيش ، تنفخ فـى الكانون الذى لا نعـرف من أين جاءها وتعـمل الشاى ، ربما سلقتْ الأرز أو خـبزت العجين أو شـوتْ ما تكون قـد أعطيناها إياه من سـمك أو حبـات بطاطا ، لكنهـا لا تمل فى أى وقت من اشعال الكانون لعـمل الشاى ، تشربه من الفنجال مقـشوف الشفة أو من الكوز المهبب مـباشرة ، تُعيد غلى التفل. تمـصه وتضعه على أورام عينيـها وقدمـيها . إذا ما شـحت المحاصـيل وأصبح الحصـول على حفنة شعيـر أو كوز ذرة ، مجرد كوز ذرة ، أمـراً مستحيـلاً ، تلف هلاهيلها على جسـمهـا وتقبع بجـوار الكانون وتقول " وإيه يعنى ؟" ، لكنهـا لا تكل من التطواف علينا ، وتسـألنا جهـاراً نهاراً ، مـزرقة الوجـه محـمرة العـينين أن نعطيها تلقيمة شاى " ومش مهم السكر ".

الأمـر الآن مـخـتلف . كل شئ الآن مـخـتلف ، فـالعـيـال ركـبـوا

الموتوسيكلات وفعصوا الكتاكيت وكسروا ساقى أم السعد. هذه حقيقة. وماذا يمكن أن يحدث وقد أصبح لدينا ميكانيكى يؤجرها، وجنيهات ندفعها من جيوبنا لتطيير الريش وإفزاع البقر والجاموس والماعز وأم السعد.

أخذنا الشيخ غالب المجبراتى وذهبنا إليها . أعطيناها الأرز والطحين وهبر اللحم ، وضعنا أمامها تلقيمات الشاى وقوالب السكر . بأيدينا أشعلنا الكانون وغسلنا الفنجال المشقوق والكوز المهبب وكنستْ نسوتنا البيت الذى بلا سقف ، إلا أننا فى الوقت الذى عرفنا فيه أن كسورها أكبر من جبائر الشيخ غالب اكتشفنا أن منظرها بشع ومرعب . لنكن صادقين ، اختلاط روائح العرق والصنة والعفونة التى تحيط بها هو الذى روعنا ، تقيأنا وطلبنا من النسوان تنظيفها إلا أنهن لم يقدرن ،واحدة منهن لم تقدر، فاكتفينا بتكليف العيال بتوصيل الأرز والطحين والهبر . ولأن عيالنا مهوسون بالميكانيكى وهدير موتوسيكلاته ، فقد دأبوا على التملص منا ، ومرة فأخرى اعتدنا أن يأيتنا صوتها الزاعق عبر البيت مهدم السقف " تلقيمة شاى يا أولاد الكلب " . ولم نكن لنجرؤ على توبيخ العيال .

وإذ تتضاحك هى وابنتها حول توافه الأمور، لاحتْ منها نظرة إلى المرآة، فمالتْ برأسها ونظرتْ باهتمام. مدت يدها إلى تعصبية رأسها وأخرجت خصلتين أوثلاث .. " ياه كل ده بياض وهيش ؟". توقفت ابنتها عن الضحك وراقبتها وهى تتحسس خديها المهدلين وكرمشات عينيها . لم ترها من قبل تفعل هذا ، فكرت :" بأى شئ يمكن أن أشغلها ؟.. بأى حيلة يمكن أن أبعدها عن المرآة ؟".. لكنها فاجأتها بأنْ سحبتْ الفوطة وهرولتْ باتجاه الحمام .

لم تغبْ . ربع الساعة فقط . الربع أو أقل قليلاً ،بعدها خرجت. إلى غرفتها جرتْ ، وأمام الدولاب وقفتْ .استدعتْ ابنتها التى كانت قد لحقت بها ، واستندت إلى الباب ترمقها ، سألتها أى الفساتين أجمل . فرحتْ البنت وزغردت ، مشطت لها شعرها ووضعتْ فيه فيونكة . جرتْ إلى غرفتها وعادتْ باصبع الروج ،بينما انثنتْ هى إلى درجها وأخرجت الجورب المزركش بتاع زمان ." تجننى يا أمى .. تهبلى " ، " يعنى مخ أبوك حايتلحس ؟" ، " ودى فيها كلام ؟ .. دانت قمر أربعتا شر " .

جاء الأب ، فى البداية جفل وتراجع ، ثم بش ورحب ،وبأقصى ما يملكه من لباقة أشار إلى ابنته أن تنادى أمها لتقابل" الست". خففت البنت على نفسها واحتمت بالباب المجاور وراحت تضحك . أماهى فقد ظلت

خشخشة الضحك تصهلل فى صدرها وتطلب المزيد. قال " أهلا"، وقال " شرفت " ، وسأل :" حضرتك مين ؟ " . ولما لم تتمالك نفسها ، وفجَّر عفريت الضحك صدرها وحنجرتها ونطط ابنتها ورماها على قفاها فراحت تخبط على رجليها وصدرها وتضحك ، عرف أنها هى . هى التى عاش معها أربعين عاما أو يزيد ، فاندفع نحوها وأشبعها لطماً وركلاً ، وجاء بدورق ماء وصبه فوق رأسها.

خـــيـــة

مثل برغـوث البحر أمى . ضشيلة مقوسـة الظهر ولها شوارب . الشـعر يهبط من فوديها وينام فوق شفتيهـا. يطل من أذنيها وينفر من فتحتى أنفها . حتى سـلاميات أصـابعها بهـا شعر ، يزرق لـحمهـا فى الشتاء ويحـمر فى الصـيف. كيف حـملتْ بى ؟ .. كيـف أرضعـتنى ؟.. سؤلان توقـفت عُن طرحهما من زمن ، إذا فكرتُ فيها واستـعدت ضآلة جسمها أخذتنى زهوة الحياة ،فـأنسى حزنى ، وأفتح صدرى ، وأواجـه ما ينبغى علىّ مواجـهته . مشكلتى أن فراغات شاسعة تفـصل بين وبين شواطئها، ولا أعرف لماذا لم أحاول طوال السنوات الماضـية توجيه مجاديفى إلى مـرفأها. لا أعرف هل هناك خيبة أكثر من هذا ؟



ظــلال تتهــدل على حـــواف البــياض



ترقبهن

سـينبثـقن الآن من ورا تلك البناية . هـناك . تلك الواقعـة فى المنطقـة الجرداء ، بين شـجيرات الخروع ومـساحات النجـيل اليابس ، نعم . البناية كثـيرة النوافـذ ، قليلة الأبواب، سينبـثقن ثم يتكورن ويتـجمعن كـغيـمات الأعاصـير ، هـاهن ، انظر ، إنهن يمشـين حافـيات ، منكوشـات الشـعر ، متزاحمات. باتجاهنا يمشين فقف مكانك . لا تُظهر لهن علامات الخوف ولا تفـرش هذه الابتـسـامـة وتمـالك . قـد تـرى منابت الاثداء أو هالات الحلمـات أو سُمـرة وبيـاض الأفخـاذ ،فـلا تلهث أو تُمن نفـسك باشبـاع رغبات لن تتحقق. انظر إلى تلك التى تصرخ فيهن ، تلك التى تُحرك يديها فى كل اتجـاه . إنها الوحـيـدة التى يمكن التفـاهم مـعهـا ، سيـقتـربن الآن فتماسك واقبض بقوة على أوراقك . كن لا مـبالياً تسلم . سترى انفعالات الوجـوه والأعـين الذاهلة .نعم . سـتـدميك - وقـد تصـيـبك بالقـرف - الخـدوش والندوب وخيـوط المخـاط المـتناثرة على صفـحات الخـدود ، وقلبك سينفطر بسبب الكدمات والجروح المقيحة عند الأكتاف والأرساغ وسمانات الأرجل ، لكن لا تهتز . ستسمع أصوات المراجل إذ تغلى ، وقد تسمع غنجـات أو شهقـات أو قهقهـات فلا تتوتر ، قـد تُعرض عليك آباط ريانة وأخرى نتنة ، ربما تُشق لك قمصان عن نهود بيضاء كاللبن أو سمراء

كالشيكولاته فتماسك . قد تُشمم أو تُصفع أو تُلقى بحصاة فلا تفعل شيئاً وقف حتى يعبرن. إنهن ذاهبات إلى ذلك المبنى. ذلك الوطئ ذى الباب الواحد حيث شجيرات الكافور . التى لم تتسامق بعد ، تسوقهن تلك التى تصرخ دوماً وتعبر بهن النافورة المهملة وتقف بهن أمام الباب . هناك سيتبادلون الغمز واللمز واللكز ، ويكثرن من هرش أقفيتهن قبل أن يغيبهن الباب ، الواحدة منهن إثر الأخرى .. زُرافات منهن سيهربن ويجرين راجعات القهقرى .. قد يسقطن فى النافورة وقد يتفادينها ، فتصرخ فيهن تلك المرأة وتعيدهن صاغرات طائعات ، ولا يفاجئنك ضراط المتغوطات أمام الباب ، فالمرأة المسيطرة سترفعهن من أقفيتهن وتأمرهن بحمل الخراء ودفنه أسفل شجيرات الكافور. لحظتها ستقبض بكفيك على أمعائك ولن تشعر بأى متعة وأنت ترى مؤخراتهن العارية وقد اختلطت بالأصفر والبنى وزرقة الكدمات المتورمة. ربما أفلحت فى السيطرة على نفسك ، وربما أفرغت ما فى بطنك ، وأيا ما حدث احذر أن يشعرن بأنك خائف أو متوجس أو مستهزئ سيهجمن عليك ساعتها ويمزقن ملابسك ويطيرن أوراقك ويتصارعن على أطرافك ، وقد ترى كفيك وقد دُسًّا رغماً عنك بين فخذين، ورأسك مهصوراً بين عدة سواعد وزنود كنت تظنها بضة ورخصة، بينما تأخذ الأظافر فى خمش وجهك فيما تجاهد إحداهن لأن تدس إصبعين فى عينيك ، متحشرجاً ستنادى على المرأة الصارخة لكنها لن تأتيك فانتبه ، هاهن يقتربن ،وإن هى إلا لحظات ويُحطن بنا ونصبح فى وسطهن بالتمام فامسك بى واثبتْ .

دائمـا ما ينبـعث ذلك الصوت المـكتوم من خلف ذلك البـاب ، نفس الرنة. نفس البحـة نفس الحشرجـة . لا تبال بأولئك المتناثرين فى المـمر ، فلن يشعـروا بنا ، ادفع الباب وانظر ، ها هى منكـفئة على وجـهها. كـفاها تقبضان على مسند الفراش تعض بأسنانها على الوسادة.تلوك نتف القطن . تلفظها فتتطاير فى فراغ الغرفـة ، وتعلق بشعرها المهوش ، من هنا يمكنك أن ترى خديها النحيلين وقد تقاطعت فوقهـما خيوط زرقاء هائلة وذراعيها حيث تنفر العروق وتتعرج وأصـابعها إذ تتشنج على حديد المسند كم هى شاحبـة. متوترة وضعـيفة .هاهى ذى ترفع عينيـها إلينا. انظر . إن ملامـحها ترق ، والخيـوط الزرقاء تضـيع ، وعينيـها تأخذان فـى الاتساع ، إن هى إلا لحظات حتى يشـرق وجهها ، وتتوقف الحـشرجات تماما. تـنفض شعرها وتسوى جلبابها وتهبط حافية إلى الأرض. تمـد ذراعيها الينا. تفتحهما ، لا تخف ، افتح لها ذراعيك وراقصها ستـجدها كاالنسيم بين يديك ، ستسمع أرق موسيـقى تخرج من بين شفـتيها، وتخـاصر أجمل بدن ، فراقـصها ثم أسلمـها إلى . كم هى وديعـة ورشيقـة ، تنسم ذلك الأريج الذى يعـبق جو الغرفـة ، هاهى تتحـول إلى فراشة مـفعـمة حيـوية وجمالاً . تـدور حوالينا وتلف حول نفسها وترف بجناحيهـا وتتمايل فى كل ناحية حذار لئلا تفلت منا وتحلق فـوق ذلك الضـوء المنسكـب من تلك الكوة العـاليـة فتـخـرج وتضيع، مل عينيك من رقتهـا ومن شعرها إذ يتطاير ويلتف بجيدها ويندس

بين منبتى ثدييها ، هاهو الدفء يسرى فى الغرفة ، وائتلاق الضوء فى عينيها يأسرنا فندور بها ومعها سابحين فى فلك وجهها الصبوح ، والوهج المشع من كل ثنية من جسدها ،يالها من لحظات أثيرية ، ويالها من ملاك .
أعلم أن نفسك تهفو للالتصاق بها والبقاء معها والذوبان فيها . نفسي تحدثنى بهذا أيضاً فهل أجزى منه ؟ ... لو توافق .. فقط توافق. لكن انتبه ، فهاهم قادمون ، اسمع جلبتهم فوق البلاطات المهشمة . سيأتون بمعاطفهم وعربتهم وأدواتهم المكهربة فاتركها سريعا وهيا بنا نهرب من الباب الموارب ، فى الغد سنأتيها ، فى نفس هذه الساعة من الليل سيدلنا إليها نفس الصوت المكتوم المتسرب من خلف الباب ووجوه المتنائرين فى الممر .

تأجيـــل

على امـتداد الحجـرة الواسعـة تراها سائرة فى كـل اتجاه. تحـارُ وتجد نفسك مـضطراً لأن تقف بالبـاب ولا تدخل . هاهى ذى تسـير بـمحـازاة الحائط الـمواجه . خطواتهـا أقل سرعـة وساعـداها أقل تطويحا . تسـتدير فـجـأة تجـاه الحائـط وتأخذ فـى ضربه ، لـحظات وتسـتكين ، تمسـح أثر ضرباتهـا ثم تلتصق به وتفرد سـاعديها على اتسـاعهما ، ها أنتـذا تُلجمك الدهشـة وأنت تراها تُريح أحـد خُديهـا إلي الحـائط ، وتلمح - وأنت من مكمنك اسـتدارة خـدها الذى فى مواجـهتك ، وقـد انسكب عليه الـضوء فتكتـشف أنه فى نضارة خوخـه ناضخة . ثمـة ما يُفزعك فـى الطريقة التى تغمض بهـا الجفن الذى إن فتـحته لرأتك فى وقـفتك المخـزية ، لكنها لا تفـتحـه ، إنما تُشـدد من التصـاقهـا بالحـائط وتند عنها تأوهات وغنجـات تدفعك لأن تنسـحب بهدوء مغلقاً البـاب ومؤجلاً موعـد الحقنة إلى وقت تهدأ فيه .

حين رأته هكذا مـرميـاً على الفـراش وملفـوفاً بكـل هذه الضمـادات والجبائر ارتمت عليه واحتضنته ، قبضت على رأسه وضمتها إلى صدرها . مسحت على الشعيرات النافرة من الأربطة وجاهدت دموعها وهى تهدهده وتناغيه وتـدعو له بطول البقاء وألا يُحـرم أبناؤه منه . لمَّا اقتحـمتْ الغرفة تلك الرائحـة ، توقفت عن الهـدهدة ، وتركت الرأس الملفوفـة ، ونظرتْ باتجاه البـاب مستطلـعة . إمرأة أخـرى . جزعة دامـعة . سألتـها وهى على السرير ما تزال :

- من أنت ؟

- زوجته .

تدومت الرائحة داخل أنفهـا . أحست بها زوابع تعصف برئيتـها . إنها تلك الرائحـة التى كانت تقـتحم غـرفتـها حـينما يدخل عليـها ، فـتؤرقـها وتضنيهـا ، التفتت إلى كـتلة الضمادات والجـبائر أسفل منهـا ، لالتفاتتـها حفيف وصرير :

- صحيح ؟

لم يُجب. هتفت :

- رُد.

لكنه لم يرد فهجمت عليه وراحت تضربه فى كل موضع، فيما أمسكت الأخرى بالمقعد وأخذت تهبط به على رأسه وبطنه وساقيه .

" إيـــــه الضـــرر يعـــنى ؟ "

اجتمع الثـلاثة فوق وجهها . الجـديرى والنمش وحَبْ الشباب . ووراء شفتيها المتورمتـين تراكبت أسنانها وتشرشرت. داخل جلبابها صدرٌ هزيل وردفان ضامران ، أسفل منه تتجاور بقع ثآليل فوق الجزء الظاهر من ساقين هما والخشـب سواء الخرقة فى يدها مـعكوكة بالبصاق المـدمم ، ورأسها على الوسادة التى أكلها العرق وطول الرقاد .

نظرتْ إلى الزجاجة المدفوعة إليها :

- جاية لى سم يا خالة ؟

- يا عبيطة .. أنا كاتبة عليها (سم) علشان العيال متشربوش

- ما يشربوه ..

- يشربوه إزاى ؟.. المية اللى فيها مسحورة مخصوص علسانك .

- ابعديها والنبى يا خالة .

- طاوعينى .. المية دى هى اللى حاترّجع لك جمالك .

بوهن مَدتْ يـدها ، مدتها ونظرت لـخالتهـا . خالتـها المنشغـلة بتلاوة الرقُية التى حفظتها من كثـرة ترديدها ، سعلتْ وبصقت فى الخـرقة ، فإذا بالزجاجة تنتقل من يد الخالة إلى يدها ، نظرت إلى الـورقة الملصقة عليها وكلمة السم المـكتوبة بخط اليد ، خط خـالتها هو . خـالتها الـمنهمكة فى ترديد الرقية . بأصابع مقرحة أدارت الغطاء وفـى ذهنها سؤال يتدوم " حتى لو كان فيها سم ، إيه الضرر يعنى ؟" .

أيتها البنت الجميلة لماذا طفوك هكذا ؟

فوق المجرى الهادئ تطفو البنت. مزركشة مثل حزمة من زهرات الياسنت ، بهدوء يمضى بها الماء . حلمتاها منثنيتان تحت المشد، وبشرة النهدين أديم تنعرس فيه زهرات الثوب المبتل ، تنحنى أغصان الصفصاف إذ تمر أسفل منها ، وشواشى الغاب تهتز لرفرفات العصافير الناتجة ، وأعواد الذرة تميد إذا ما توقفت أمامها . أيتها البنت الجميلة لماذا طفوك هكذا ؟... قفزات الضفادع لا ترهبك ، ولسعات الناموس لا تؤذيك . الشمس تتبرقع بالغيم خجلاً منك ، والسميكات الراعشة تحف بك لترضيك ، وأنت فى طفوك لا تأبهين . أى يد أثيمة أسلمتك لما أنت فيه ؟ .. أية أفكار لئيمة أحاطوك بها ؟ .. كتلة من السكينة الطافية أنت، فَمُرِّى واستمرى فى استسلامك لمسرى الماء فى المجرى الهادئ ، وابقى طافية .. ابقى طافية .. ولا تغوصى .

الطفلة تحتضر . هذا ما يبين لهن بوضوح. وجـهها شاحب .فيه بياض وزرقه . البنفسجى والبـنى يصنعان هالة ثقيلة ترتفع فوق حاجبيها وتسقط باتجاه صدغيها. شخيرها آخـذ فى الخفوت وجفناها يدفان فيرتعش حجرا عينها ليظهـر البياض المعكر فيهـما . أما سواد النني فقد اخـتفى إلا قليلا . الشفـة السفلى لا أثـر لها . العليـا هى الظاهرة . كأنهـا ما ولدت إلا بشـفة واحدة .

قالت الطبيبة : انقلنها بالسرير إلى جوار الشباك .

فى الضوء النافذ من الستارة بدا المنظر مريعاً . كأن السرير نعش . كأن الغطاء كفن .

بكتْ إمـرأة : يا كـبـدى ، فناحتْ الأخـريات وأسـقط فى يدى الأم . هتفتْ الطبيبة : اسكتن .

خلسة مـدت الأم أصابعـها إلى خدى الطفلة ثم عـادت فلمتـها . تعلم أنهن سيسـحبن أصابعها ويرجـونها أن ترحم نفسها فـسهم الله نافذ ، ولن يغيـر ما تفـعله شيـئاً . لكنها عـادت وبإصبع وحيد مَسّتْ الـذقن الباردة . ضغطتْ عليها لعلها تنجح فى خفض شفـتها الضائعة ،وتفتـــح فمـــها . " أيها الرحيم المعجز " .. هاهو فمهـا ينفتح . لسانها الملتصق بسقف حلقها يسقط . قطعـة منتنة من لحم يعلوه الفطر ،ومـخاط كثـير يمتـط بين سقف

الحلق وبينه ، عنـد اللهاة تتـجـمع كـتل بيـضاء عكرة . يا ضـوء الشـمس القاسى .

على همود الجسـد الضئيل فإن التـشنجات التى تنتابه تحرك المـرفقين وترفع الساعدين صوب الوجه المغـيب . كأنها هى شحنات من كهرباء أو لفّات من زمبركى ، البنفسج غزا الكفين والرسغين .

سمـحن للأم بلمس كفيـها ، بل رأينها وتغـاضين . ثمة رعـشة خفيـفة تسرى فى إبهام الكف اليسرى ،كلما تعرض لهواء مراوح اليد فى أيديهن . حاولت إحداهن سحب الأم إلى الخارج ، إلا أنهـا تشبثتْ بالسرير وظلت منحنية فـوق وجه الطفلة حـتى كادت تلمسـه بوجههـا . برغمهـا هصرت الكفين الباردين فانفتحت العينان ثم أسبلتا. فككن اشتباك الأكف فسقطت بضع دموع فوق الوجه. اختلج فامتدت أياديهن بالمناديل وجففنه .

– دكتورة .

نظرتْ الطبـيـبـة إلى حيث أشـارت الأم . يا فـوخ البنـت ينخـفض . التحـامات عظام الجمـجمة ، تحت شـعرها الذى لم تتح له فرصـة النمو ، تظهر بوضوح . ثمة نبض لكن الفجـوة لا نبض فيها . أو لعله من الخفوت بحيث لا يُرى أو يُحس .

بدرت من الطفلة حـركة فأسـرعت الطبيـبة ورفـعتْ الرأس ليندلق من ركن تحت الشفة العلوية سـائل أصفر مخضوضـر . سارعت أيدى النسوة بمسح مالم يتشربه الغطاء . صرخت الأم فاحـتضنتها اثنتان وحاولتا جَرَّها لكنهما لم تُفلحا . لفّتْ الطبيبة إصـبعاً وأدخلته فم الطفلة ، مسحت حلقها

ثم أخرجته مقيحاً مدمماً . القت اللفافة وما عليها من قيح ومخاط فى الحوض المزدحم بالحقن والأمبولات مهشمة الرقاب وسكبتْ بعض الكولونيا على كفيها .

ما صدر عن الأم ولفت أنظار العجائز كان مواءً أوشيئاً من قبيله فوق الستائر انطبعت أضوء الملهى المواجه . الليل إذن قد حل .

- ثلج ..كفاها ثلج .

صرخت أمها وكشفت عنها الغطاء وأخذت تجس أعضاءها :

- ثلج .. ثلج ..

ساقا الطفلة ارتختا ، والزرقة كست أصابع قدميها تماما . أظافرها فى لون الحبر . أخرجت البنت صوتاً لاهو بالحشرجة أو بالصفير. الشفة العلوية كساها البنفسج وهبطت ، فى تضخمها ، إلى حنية الذقن ، فيما ظل ابهام الكف اليسرى يرتعش كلما حركت النسوة مراوحهن .

قامت واحدة وأشعلت عود بخور. " عذبلتْ وبسملتْ وحوقلتْ ، فتدومتْ الغرفة بالعذبلات والبسملات والحوقلات. وإذ تعبأت الغرفة برائحة العطر المحروق والرقى والآيات المنجيات . حركت البنت بعضاً من أجفانها فبان البياض المعكر من عينيها، وبان بعض من سواد النني . أكثر من هذا تحرك ما ظهر من بياض وسواد صوب الأم . دون أن تلفت واحدة منهن انتباهها إلى ما فعلته البنت بعينيها، شعرت بأن طفلتها إنما تحاول النظر إليها ، فانحنت إليها وقبلتها ومست خدها بخدها ، فيما ظلت العينان على حالهما ولم تنغلقا .

الفهـــرس

قائمة إصدارات
مركز الحضارة العربية

روايات ..

- إينارو — د. على فهمى خشيم
- تحولات الجحش الذهبى — لوكيوس أبوولوس، ترجمة د.على فهمى خشيم
- مسالك الأحبة — خيري عبد الجواد
- العاشق والمعشوق — خيري عبد الجواد
- الخروج إلى النبع — محمد قطب
- حافة الفردوس — نبيل عبد الحميد
- الدميرة — د. عبد الرحيم صديق
- حمدان طليقاً — أحمد عمر شاهين
- ترانزيت — ليلى الشربينى
- مشوار — ليلى الشربينى
- الرجل — ليلى الشربينى
- رجال عرفتهم — ليلى الشربينى

قصص قصيرة ..

- مطربة الغروب — جمال الغيطانى
- مخلوقات الأشواق الطائرة — إدوار الخراط
- حرب بلاد غنم — خيرى عبدالجواد
- حكايات الديب رماح — خيرى عبدالجواد
- حرب أطاليا — خيرى عبدالجواد
- سيرة عزبة الجسر — سعد الدين حسن
- خلف النهاية بقليل — وحيد الطويلة
- الممنوع من السفر — شوقى عبد الحميد
- شجرة الخلد — سعد القرس
- شهقة — سعيد بكر
- أيام هند — سيد الوكيل
- فرد حمام — يوسف فاخورى
- خبرات أنثوية — قاسم مسعد عليوه
- الفوز للزمالك والنصر للأهلى — عبد اللطيف زيدان
- ليس هناك ما يبهج — عبده خال
- لا أحـــــد — عبده خال
- أحزان رجل لا يعرف البكاء — خالد غازى
- الشاعر والحرامى — عزت الحريرى
- رشفات من قهوتى الساخنة — محمد محى الدين

شعر ..

- سراب القمر — فاروق خلف
- إشارات ضبط المكان — فاروق خلف
- قصائد حب من العراق — البيـاتى وآخرون
- أول الرؤيا — إبراهيم زولى
- رويدا باتجاه الأرض — إبراهيم زولى
- نصف حلم فقط — عماد عبد المحسن
- دنيـــا تنادينــا — طارق الزياد
- صلاة المودع — صبرى السيد
- من فصول الزمن الردىء — درويش الأسيوطى
- غربة الصبح — محمد الفارس
- الغربة والعشق — مجدى رياض

عطر النغم الأخضر — عمر غراب

العجوز المراوغ يبيع أطراف النهر — نادر ناشد

هذه الروح لى — نادر ناشد

فى مقام العشق — نادر ناشد

ندى على الأصابع — نادر ناشد

إذهب قبل أن أبكى — د. لطيفة صالح

مسرح ..

هذه الليلة الطويلة — د.أحمدصدقى الدجانى

اللعبة الأبدية .. (مسرحية شعرية) — محمد الفارس

ملكة القرود — محمود عبدالحافظ

دراسات ..

آلهة مصر العربية — د . على فهمى خشيم

رحلة الكلمات — د . على فهمى خشيم

بحثاً عن فرعون العربى — د . على فهمى خشيم

أباطيل الفرعونية — سليمان الحكيم

مصر الفرعوبية — سليمان الحكيم

هاجس الكتابة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

غبات عصر جديد — د . أحمد إبراهيم الفقيه

حصاد الذاكرة — د . أحمد إبراهيم الفقيه

الجات والتبعية الثقافية — د. مصطفى عبد الغنى

ضد هدم التاريخ وموت الكتابة — أحمد عزت سليم

فى المرجعية الاجتماعية للفكر والإبداع — محمد الطيب

زمن الرواية : صمت اللحظة الصاخبة — مجدى إبراهيم

البعد الغائب : نظرات فى القصة والرواية — سمير عبد الفتاح

أعلام من الأدب العالمى — على عبد الفتاح

المثل الشعبي بين ليبيا وفلسطين — خليل إبراهيم حسونة

أدب الشباب في ليبيا — خليل إبراهيم حسونة

العنصرية والإرهاب فى الأدب الصهيونى — خليل إبراهيم حسونة

تراث ..

كشف المستور من قبائح ولاة الأمور — د . أحمد الصاوى

رمضان .. زمان — د . أحمد الصاوى

القصص الشعبى فى مصر — إعداد خيرى عبد الجواد

إغاثة الأمة فى كشف الغمة

الفاشوش فى حكم قراقوش

الحكمة المدنية لابن المقفع

فنون ..

ماهى السينما — صلاح أبو سيف

قضايا المونتاج المعاصر — د . عفت عبد العزيز

الصوت والضوضاء — د . مصطفى عبد المطلب

بالإضافة إلى :

كتب متنوعة : سياسية - قومية - دينية - معارف عامة - أطفال .

خدمات إعلامية وثقافية (اشتراكات) : ملخصات الكتب - وثائق - النشرة الدولية - دراسات عربية - معلومات - ملفات صحفية موثقة.

للمـــؤلـــف :

- انشودتان للــحرب	مــســرحــتــيـــان ١٩٧٢
- الضحـــك	قـصـص قـصـيـرة ١٩٨١
- تنويعات بحريــة	قـصـص قـصـيـرة ١٩٨٢
- صخرة التأمل	قـصـص قـصـيـرة ١٩٨٩
- حدود الإستطاعة	قـصـص قـصـيـرة ١٩٨٩
- غير المألوف	قـصـص قـصـيـرة ١٩٩٥

تحت الطبع :

- لاتبحثوا عن عنوان.. إنها الحرب .. إنها الحرب - قصص قصيرة
- وتر مشدود - قصص قصيرة
- الديدامونى - مسرحية .